أنور الجندي

أضواء على تاريخ الإسلام

مطبعة الرسالة
شارع حمروش المناول ٣ عابدين

بسم الله الرحمن الرحيم

أبواب الكتاب

- من الدعوة إلى الدولة
- أضواء على الفكر الإسلامي
- بين الإسلام وخصومه
- الإسلام والحضارة
- دور الإسلام في القيادة العالمية

١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م

خطة البحث

كما ترسمها كلمات الرئيس جمال عبد الناصر

في ٢٦ أغسطس ١٩٥٣ تحدث السيد الرئيس « جمال عبد الناصر » في المؤتمر العربي الإسلامي الذي عقد في هيئة التحرير بالقاهرة فقال :

منذ أربعة عشر قرنا أشرقت السموات والأرض بنور الله عز وجل وهبطت الرسالة المحمدية فأضاءت الكون بنور الهداية والتوحيد . وفاضت على البشرية نعمة السلام والإسلام وحررت النفوس من الذل والعبودية ومنحت الانسانية الحرية والعدالة والمساواة ؛ ووطدت بذلك دعائم السلم نظاما للمجتمع العالمي .

وهكذا جاء الإسلام ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الضلالة إلى الهدى :

فلما آمن المسلمون بالله واليوم الآخر . هبوا من غفوتهم تدفعهم هذه العقيدة الفياضة . وهذا الإيمان القوى الجبار . مجاهدين مناضلين في سبيل الله فرفعوا راية الاسلام خفاقة في العالمين ثم أصيب الاسلام بأكبر ضربة في صميمه وهي تفرق المسلمين شيعا وأحزابا فبدأت كتلة الاسلام والعرب تتفكك وقوتها تتحطم وأمانيها تتزعزع فتسرب الضعف إليها وتالبت الدول عليها وتآمرت عليها قوى الشر وأعلنتها حربا بعد طول

انتظار فتمكنت منها فى ضعفها وتحكمت منها فى محنتها فاذا بهذا البناء الشامخ يرزح تحت نير الاستعمار والاستعباد .

وهكذا عادت الظلمة تنشر سوادها على العرب والمسلمين فراحوا فى سبات عميق وتوالت ضربات الاستعمار ولطماته هنا وهناك ...

ولو حاولنا أن نتساءل كيف تمكن الاستعمار منا لوجدنا الحقيقة المؤلمة تبرز أمامنا ، بأننا نحن الذين مكنا لهذا الاستعمار منا ويجب أن نعرف أن العالم العربى والعالم الاسلامى يقفان اليوم أمام عدو واحد . ويتهاويان أمام مرض واحد . أما عدونا فهو « الاستعمار » وأما مرضنا فهو الدعه «والتخلى عن الجهاد » فى سبيل الله كما يجب أن يؤمن العرب والمسلمون بأن عهد اللغو والكلام قد انقضى وأن عهدا جديدا يجب أن يبدأ . عهداً قوامه الايمان بالله وعماده العمل فى سبيل الله » .

***

وعلى ضوء هذا الاتجاه الذى رسمه قائد العرب وبطل الاسلام نكتب هذه الصفحة من تاريخ الاسلام .

أنور الجندى

من الدعوة إلى الدولة

القرآن

« نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » بينما رسول الله عاكفا فى « غار حراء » يتعبد ، فجاء جبريل على هذه الصورة التى ترسمها كتب السيرة ، وكان هذا هو بدء الوحى .

وأول ما أنزل منه الآية الكريمة « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » .

تقول الرواية المتواترة عن عائشة « أن الحق فجأه وهو فى غار حراء . فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارىء قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد فقال « اقرأ باسم ربك الذى خلق » .. حتى بلغ « مالم يعلم » فرجع بها يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة فقال زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع » .

ثم فتر الوحى فترة توجس خلالها الرسول ، وأشفق أن يكون ربه قد قلاه ويقول ابن اسحق أن مدة انقطاع الوحى كانت ثلاث سنين ، ويقول بعض الرواة أنها كانت أربعين يوما ثم نزل الوحى بعد طول فتوره بأول سورة الضحى « والضحى والليل إذا سجى . ماودعك ربك وما قلى

والاخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث » .

وتتابع الوحى منجما حسب الوقائع والأحداث ، خلال ثلاث وعشرين سنة وكان أول نزوله فى ليلة اليوم السابع من شهر رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده — فى رواية الشيخ الخضرى — إلى تاسع ذى الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة والثالثة والستين من ميلاد النبى حيث أنزل إليه آخر آية فى القرآن « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » وهى بحسب هذا التقدير إثنان وعشرون سنة وشهران واثنان وعشرون يوما .

وروى ابن عباس أن القرآن نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد ذلك منجما خلال عشرين سنة .

كان القرآن معجزة محمد . هذا الكتاب البليغ معجزة كل العصور والأزمان ، فهو آية بالغة بالنسبة لقوم وصلوا إلى حد بعيد فى البلاغة والبيان فكان لابد أن تأتى المعجزة على هذه الصورة التى رسمها القرآن حين دعاهم إلى أن يأتوا بسورة من مثله أو آية من مثله .

وعندما أتم الله القرآن بدأت صفحة جديدة من العلم والبحث والدرس ونشأ هذا اللون الذى يطلق عليه «علوم القرآن» تناولت كل أنواع الفكر واتصلت بفنون القول فى الفقه واللغة والتاريخ والتفسير .

بل إن القرآن ظل المادة الأولى الخام لكل المذاهب الإسلامية : فمنه صدرت مذاهب الصوفية والمعتزلة والسنة والشيعة .

وكانت مذبحة « اليمامة » عاملا من عوامل تسجيل القرآن فقد أتت على عدد كبير من حفظة القرآن . مما ملأ قلب « عمر » بالمخاوف فى أمر الكتاب ونصوصه . فاتجه إلى أبو بكر بقوله « أخشى أن يستمر القتل كرة أخرى بين حفاظ القرآن فى غير اليمامة من المغازى . وأن يضيع لذلك كثير منه . والرأى عندى أن تسارع فتأمر بجمع القرآن . وأقره أبو بكر ووكل هذه المهمة إلى « زيد بن ثابت » فجمع ما كان من الآيات على ورق الشجر وعلى الحجر الأبيض وفى صدور الرجال واستمر على ذلك ثلاث سنوات يجمع هذه المادة ويرتبها على النحو الذى هى عليه اليوم .

ثم جاءت الخطوة النهائية عندما اختلف أهل القرآن فى القراءات فتدخل « عثمان » ليقف الناس حتى لا يختلفوا على كتابهم . فأخذ زيد بن ثابت وثلاثة من قريش يراجعون النسخ الأولى على القراءات المختلفة وأرسلت النسخة المحققة إلى الأمصار وحرق ماسواها من نسخ .

جاء القرآن معجزاً من حيث خصائصه البلاغية والبيانية ومن حيث أخباره بالغيب وقد كان ذلك موضع دراسة العلماء فوضعت كتب متعددة فى إعجاز القرآن ، لأبى عبيدة ، والجاحظ والواسطى ، وابن الاخشيد . وابن أبى داود ، والرمانى ، والخطابى ، والباقلانى ، والجرجانى والرازى ، وابن أبى الأصبع والزملكانى والرافعى .

فى الوقت الذى يعد فيه القرآن . دستور الشريعة الانسانية ، يعد أيضاً أرفع أثر بلاغى فى الأدب .

وقد تحدى القرآن خصومه أن يعارضوه بسورة واحدة أو بآيات يسيرة فعجزوا مع طول باعهم فى فن البيان . وسجل العرب قصورهم عن بلوغ منزلته .

« أم يقولون افتراه . قل فأتو بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا إنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون » « أم يقولون تقوله ، بل لايؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ، إن كانوا صادقين » .

قال الوليد — وهو لم يسلم — لبنى مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاما ، ما هو من كلام الانس . ولا من كلام الجن . وإن له لحلاوة . وإن عليه لطلاوة . وإن أسفله لمغدق . يعلو ولايعلى عليه » .

قال الرسول يصف القرآن :

« فيه نبؤكم . وخبر ما كان قبلكم . ونبأ مابعدكم . وحكم مابينكم ولا يخلقه طول الرد . ولا تنقضى عجائبه . هو الحق ليس بالهزل » .

يقول أحد أعلام الفكر الاسلامى « إن القرآن الكريم كتاب جامع جمع الله فيه أصول العقائد ، وأسس المصالح الاجتماعية ، وكليات الشرائع الدنيوية ، فيه أوامر وفيه نواه .

وقد حدد القرآن غايات الحياة ومقاصد الناس فيها ، وجعل المسلمين أوصياء على البشرية القاصرة وأعطاهم حق الهيمنة والسيادة على الدنيا .

ويقول «القرآن هو الجامع لأصول هذا الاصلاح الاجتماعي الشامل . وقد أخذ يتنزل على النبي ويعلن به المؤمنين بين الآن والآن بحسب الوقائع والظروف والمناسبات «كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً» حتى اكتمل به الوحي وحفظ في الصدور والسطور وجمع الله فيه لهذه الأمة تبيان كل شيء وأصول الإصلاح الاجتماعي الكامل الذي جاء به تكاد تنحصر في هذه الأصول :

١) الربانية ٢) التسامي بالنفس الإنسانية ٣) تقرير عقيدة الجزاء ٤) إعلان الاخوة بين الناس ٥) النهوض بالرجل والمرأة جميعا . إعلان التكامل والمساواة بينهما ٦) تأمين المجتمع بتقرير حق الحياة ٧) ضبط الغريزتين غريزة حفظ النفس وحفظ النوع ٨) الشدة في محاربة الجرائم ٩) تأكيد وحدة الأمة والقضاء على كل مظاهر الفرقة وأسبابها ١٠) إلزام الأمة الجهاد ١١) إعتبار الدولة ممثلة للفكرة وقائمة على حمايتها .

وقد خالف هذا النظام القرآني غيره من النظم الوضعية والفلسفات النظرية فلم تترك مبادئه وتعاليمه نظريات في النفوس . ولا أراء في الكتب ولا كلمات على الأفواه والشفاه . ولكنه وضع لتركيزها وتثبيتها والانتفاع بآثارها ونتائجها مظاهر عملية وألزم الأمة التي تؤمن به وتدين له بالحرص على هذه الأعمال . وجعلها فرائض عليها لا تقبل في تضييعها هوادة .

رسم القرآن دستور « الإسلام » كما وضع صورة للشخصية الانسانية الكاملة وعن عائشة تصف رسول الله بقولها « كان خلقه القرآن » .

فى القرآن قصص ، وتشريع ، وتاريخ ، وأخلاق .

وقد اخترنا هنا موجزا للتقسيم الذى وضعه الامام الغزالى للقرآن فى كتابه « جواهر القرآن » .

١ – شرح معرفة الله تعالى . معرفة الذات ومعرفة الصفات ومعرفة الأفعال ويدخل فيه ذكر عالمى الواقع والشهادة كذكر السموات والكواكب والأرض والجبال والشجر والحيوان والنبات .

٢ – تعريف طريق السلوك إلى الله .

٣ – تعريف الحال وهو ذكر الروح والنعيم الذى يلقاه الواصلون . ويشتمل على ذكر الجنة وذكر الخزى والعذاب ويشتمل على ذكر مقدمات أحوال الفريقين وعنها يعبر بالحشر والنشر والحساب والميزان والصراط .

٤ – أحوال السالكين وهى قصص الأنبياء والأولياء كقصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وهرون وذكريا ويحيى وعيسى ومريم وداود وسليمان ويونس ولوط وإدريس والخضر وشعيب والياس ومحمد صلى الله عليه وسلم وجبريل وميكائيل والملائكة غيرهم ، وأحوال الجاحدين والناكثين كقصص نمرود وفرعون وعاد وقوم لوط وقوم تبع وأصحاب الأيكة وكفار مكة وعبدة الأوثان وإبليس والشياطين .

٥ — محاجة الكفار ومجادلتهم بالبرهان الواضح .

٦ — تعريف عمارة منازل الطريق ورعاية البدن وانتظام أمر المعاش في الدنيا ويتناول هذا القسم الأكل والشرب وذلك لبقاء البدن والزواج لبقاء النسل وشرح القرآن قانون الاختصاص بالأموال في آيات المبايعات والربويات والمداينات وقسم المواريث ومواجب النفقات وقسمة الغنائم والصدقات والمناكحات والعتق والكتابة والاسترقاق والسبي .

وصور روابط الزوجية في آيات النكاح والطلاق والرجعة والعدة والخلع والصداق والإيلاء والظهار واللعان وآيات محرمات النسب والرضـــاع والمصاهرات .

وتعمق العقوبات الزاجرة كقتال أهـــل البغي والحدود والغرامات والتعزيرات والكفارات والديات والقصاص . وحد السرقة وقطع الطريق والزنا .

وشعب القرآن إلى علوم : اللغو والنحو والقراءات وعلم مخارج الحروف والتفسير والفقه والسلوك والحدود .

يقول جلال الدين السيوطي إن سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة باجماع من يعتد به ، وعن ابن عباس قال ان جميع آى القرآن ٦٦١٦ ستة آلاف وستمائة وست عشره آية وجميع حروف القرآن ثلاثمائة الف حرف وثلاثة وعشرون ألف حرف وستمائة حرف واحد وسبعون حرفا (٦٧١ر٣٢٣)

وعدد كلمات القرآن سبعة وسبعون ألف كلمة وتسعمائة وأربع وثلاثون كلمة ٧٧٫٩٣٤ .

ويقول الإمام الرافعي في وصف القرآن « لا شك في أن للقرآن تأثيراً في النفوس لم يبلغه من قبل شعر ولا نثر ولا يدري الإنسان من أين جاء ويقف أمامه موقف العاجز المذعن منتهيا إلى أنه من عند الذي يعلم السر في السموات والأرض . هذا إلى ما فيه من نظام للجماعة الانسانية روعيت فيها مصالحها مراعاة لا يقدر عليها إلا من يعلم السر في السموات والأرض وفيه أشارات إلى معارف دقيقة في الكون وأسراره كشف العلماء عن بعضها ولم يكن من الميسور لأحد زمن نزول القرآن إدراكها » .

ترجم القرآن إلى أربعين لغة وكانت الترجمة الأولى إلى اللغة اللاتينية قام بها بطرس كلوني في القرن الثاني عشر الميلادي .

يقول « فيليب حتي » في كتابه « العرب » أن السور المكية وهي نحو تسعين ترجع إلى عهد الجهاد في حياة النبي وتمتاز بأنها قصيرة موجزة جامعة ذات أسلوب ناري طافح باحساسات النبوة ومحورها الدلالة على وحدانية الله وصفاته وواجبات الإنسان الأدبية والحساب الأخير . أما السور المدنية التي نزلت على محمد في عهد الظفر فهي ٢٤ وتبلغ نحو ثلث القرآن . وهي طويلة مفصلة غنية بمادتها التشريعية وفيها وردت العقائد الدينية وأحكام الصلاة والصوم والحج والأشهر الحرم . وفيها أيضا شرائع تحريم الخمر ولحم الخنزير والميسر وأحكام تنظيم المال والحرب وفروض الزكاة والجهاد وقوانين

مدنية وجزئية تتعلق بالقتل والثأر والسرقة والربا والزواج والطلاق والزنى والميراث واعتاق العبيد .

يقول الأستاذ « مصطفى الرافعى » إن هذا القرآن مازال يهدي للتي هي أقوم . وإن القول فيه مارج كثير المذاهب متعدد الجهات متصل الحدود يفضى بعضها إلى بعض إذ هو كتاب السماء إلى الأرض مستقرا ومستودعا وقد جاءه الاعجاز الأبدى الذى يشهد عليه الدهر ويشهد الدهر عليه . فما من جهة من الكلام وفنونه إلا وأنت واجد إليها متوجها فيه ، وما من عصر إلا وهو مقلب صفحة منه ، حتى لتنتهى الدنيا عند خاتمته فإذا هى خلاء من الجنة والناس » .

روى عن النبي قوله « من قال فى القرآن برأيه فيتبوأ مقعده من النار » فكل تفسير يجب أن يستند على أثر وارد من النبى ولا يجوز أن يعتمد فيه على الرأى .

لماذا نزل القرآن منجما ؟ وعلى دفعات ؟ تجيب آية من القرآن على هذا السؤال « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » ، « وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » .

وقد كان لنزول القرآن على فترات فى خلال بضعة وعشرين عاما أثره فى المساهمة فى الحياة الاسلامية الجديدة وتوجيهها فى دقائق مراحلها وفتراتها . والرد على المسائل والاعتراضات والاستفهامات التى توجه إلى الرسول

كما أن بعض الأحكام اقتضت أن تنزل على دفعات كتحريم الخمر ، ومن هنا نشأ « الناسخ والمنسوخ » وهو بعض آيات نزلت ثم نسخت .

يقول « أبو القاسم عبد الله ابن سلامه أبو النصر » أن المنسوخ فى كتاب الله على ثلاثة أضرب فنه ما نسخ خطه وحكمه ، ومنه مانسخ خطه وبقى حكمه ومنه مانسخ حكمه وبقى خطه ، فأما مانسخ حكمه وخطه فمثل ماروى عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة تعدلها سورة التوبة وما أحفظ منها غير آية واحدة هى «ولو أن لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً ، ولو أن له ثالثاً لابتغى إليها رابعا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » .

أما مانسخ خطه وبقى حكمه فمثل ماروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لولا أكره أن يقول الناس قد زاد فى القرآن ماليس منه لكتبت آية الرجم وأثبتها ، فوالله لقد قرأناها على رسول الله صلى الله عليه وسلم « ولا ترغبو عن آبائكم فإن ذلكم كفر بكم ، الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم » فهذا منسوخ الخط ثابت الحكم .

أما مانسخ حكمه وبقى خطه فهو فى ٦٣ سورة مثل الصلاة إلى بيت المقدس والصيام الأول والصفح عن المشركين والأعراض عن الجاهلين

وفى القرآن تسجيل لهذا قوله تعالى « ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » .

لم يهدف القرآن إلى أن تكون آياته أشبه بالأناشيد والمزامير ليرتلها المسلمون فى أعقاب الصلوات . وإنما أنزل ليكون نظاما شاملا قامت على أساسه الحضارة الإسلامية وكان دعامة الدولة والفكرة والمجتمع .

وقد عاش المجتمع الإسلامى قويا طوال الفترة التى كان القرآن نبراسه ، فلما تخلف عنه تمزق وتحطم وداخلته الأهواء وعدت عليه العوادى .

ولكنه كان يجد بين الحين والحين من الدعاة من يجدد الدعوة إليه ويحمل رايته ويوفق فى أن يخلق من حوله أنصاراً .

وأخذ القرآن فى بعض العهود صورة الفتنة المستمرة التى سيطرت على المجتمع سيطرة ضخمه . فقد دعا المأمون إلى خلق القرآن وحمل الناس على رأيه بالقوة .

وكانت هذه الدعوة من رأى المعتزلة فاحتضنها المأمون .

وبدأ المأمون ذلك سنة ٢١٨ هـ بارسال كتاب مطول إلى والى بغداد اسحق بن ابراهيم مصعب ختمه بقوله « فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك . فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم مما يعتقدون فى خلق الله القرآن وأحداثه » .

ومضى المأمون يمتحن الناس وينحى عن مناصب الدولة من لايقول

بخلق القرآن وتوقف أربعة عن القول بالخلق هم أحمد بن حنبل وسجاده ، والقواريرى ، ومحمد بن نوح فأمر بهم اسحق فشدوا فى الحديد فلما أصبحوا أعاد امتحانهم ثالثة فاعترف سجادة بخلق القرآن فأطلقه، وبعد يوم آخر أجاب القواريرى بأن القرآن مخلوق فاخلى سبيله ولم يبق بعد من هؤلاء إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فشدا فى الحديد ووجها إلى طرطوس للمأمون ومات المأمون قبل أن يصلوا إليه ، ومات محمد بن نوح وهو عائد، ولم يبق إلا أحمد بن حنبل وتولى المعتصم الأمر ودعا بدعوة المأمون وجرت محاولات لاقصاء بن حنبل عن رأيه دون جدوى . فضرب بالسياط حتى سال منه الدم وظل بن حنبل مصرا على موقفه طوال حكم المعتصم وهو حوالى سبع سنوات وخلفه الواثق الذى مضى فى الفتنه أيضاً ، وظل ابن حنبل على موقفه طوال مدة حكمه حتى بويع للمتوكل فنهى عن القـــول بخلق القرآن وكتب بذلك إلى الآفاق .

وفلسف المعتزلة « القرآن » فهم لم يقنعوا ببساطته ويسره بل مضوا يبحثون فى تراكيب الأجسام وحدوث العالم وإقامة الأدلة . وإثبات وحدانية الله وسائر صفاته وبحثوا فى الجبر والاختيار والآيات التى قد تظهر فيها جسمية الله ، وأعطوا لعقولهم حرية البحث ولم يقفوا عند النص .

وجاء العصر التركى فكان القرآن عندهم صحفاً جميلة تكتب بخطوط منسقة وتطبع على ورق جميل وتذهب حواشيها وتعرض نماذجها المختلفة فى المساجد للتبرك بها .

ونسى المسلمون أهداف القرآن فى نفس الوقت الذى فهموها فيه «غلادستون» رئيس وزراء بريطانيا حين وقف فى مجلس العموم يقول « مادام هذا الكتاب باقيا فى الأرض فليس لأوربا أن تطمع فى إخضاع المسلمين .

فى سنة ١٩٣٦م — سنة ١٣٥٥هـ دعا الأستاذ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر إلى ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية . ولكن المشروع توقف ، فقد هوجم من العلماء . »

يقول وليم موير « والارجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل إثنى عشر قرنا كاملا » .

الفتح

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا أنه لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهو فلا عدوان إلا على الظالمين » .

كان طبيعيا والاسلام دين الانسانية كلها أن يمكن لنفسه فى الأرض. فيدافع عن حياضه ويذود عن كيانه غارات المعتدين من خصومه الذين أحسوا أن توسعه سيضعف من كيانهم ويهدد مركزهم وكان من الطبيعى أيضا أن تتسع رقعة الاسلام بالدعوة والجهاد معا .

بدأ الاسلام بالدعوة وفق أسلوب من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن . واعتدى خصوم الدعوة على المسلمين حتى ضاقت عليهم مكة فاذن الله لهم بالهجرة إلى المدينة . وهناك تكون المجتمع الاسلامى الجديد وكان من الطبيعى للدولة الناشئة أن تربى اتباعها على الجهاد والدفاع عن النفس والذود عن الوطن . وهنا بدأت قريش تتجمع وتستأسد اسحق هذه القوة ولم تكتف بذلك بل مضت تؤلب القبائل حتى ترمى العرب هذه الدولة الجديدة عن قوس . ودافع المسلمون عن أنفسهم واذن الله لهم فى القتال.

ومضت الدعوة الجديدة تشق طريقها فى جزيرة العرب لتؤمن حدودها ولتنشر كلمتها حتى أوشكت على ذلك فى خلال حياة الرسول نفسه .

وامتدت بعد ذلك إلى أطراف دولتى الفرس والروم . ثم مضت تتعمق وتتسع حتى بلغت حدود القسطنطينية شمالا ووصلت إلى بلاد الصين شرقا ، وإلى مصر والمغرب والأندلس غربا .

ونظم الاسلام فريضة الجهاد (١) فهو فرض عين على كل من يقوى عليه بقدر طاقته إذا دعا النفير العام عليه وهجم الأعداء على أطراف الوطن ، فتخرج المرأة بغير إذن زوجها والعبد بدون إذن سيده (٢) وهو فرض كفاية فى غير أوقات الحرج والشدة .

وقد شرع الجهاد للدفاع عن النفس وحماية الدعوة من أن تقف الفتنة فى سبيلها مع النهى الصريح عن الإعتداء « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم » .

وقد رسم القرآن حدود الجهاد « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »

وحدد شروط النبذ ونقض الصلح « وإما تخافن من قوم خيانه فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » ورسم شروط الصلح « فان جنحوا للسلم فأجنح لها وتوكل على الله .

وقد كانت وصية الرسول لأصحابه الذين يخرجون للجهاد « أغزوا باسم الله وفى سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . لاتغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيت عدوا من المشركين فادعهم إلى إحدى خصال ثلاث فايتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم ثم أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين فان أبوا أن يتحولوا منها فاخبرهم أن يكونوا كاعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين . ولا يكون لهم فى الفىء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فان أبوا فاسألهم الجزية فان أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فان أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .

« وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمه أصحابك فانكم أن تخفروا ذمتكم وذمة أصحابكم خير أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم فإنك لاتدرى حكم الله فيهم أم لا » .

وهكذا حرص الاسلام على أن يكون القتال فى المرحلة الثانية من الدعوة رغبة فى السلام . بل أن الاسلام قد رسم أساليب القتال بحيث تنتفى منها المهانه والوحشية . وهذه صورتها فى وصية أبى بكر لأسامه بن زيد « لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وكان عمر يوصى عند عقد الألوية بقوله « قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، ولا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا . ولا تغلوا عند الغنائم ، ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا » .

وقد دعا الإسلام اتباعه إلى الجهاد بقوة وأغراهم عليه اغراء وجعله سياج الدعوة حتى باع المؤمنون أنفسهم لله قولا وعملا بقول الله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » فكان من نتائج ذلك هذه الصورة العجيبة التى ما تزال تأخذ بالباب المؤرخين حين يرون المسلمين وهم يندفعون يفتحون الأقطار وينتصرون وهم فى كل معركة الأقل عدداً ومع ذلك يظفرون .

وأثر عن عمر فى هذا قوله « من أحب الموت وهبت له الحياة » .

ولقد كان العرب قبل الإسلام محاربين أقوياء ، ولكن الاسلام أعطاهم الهدف ورسم لهم الغاية ، فاندفعوا يحملون راية الجهاد إلى أطراف الجزيرة ، يزحفون على بلاد الفرس والروم يحطمون كل مايقف أمامهم بقوة ويضعون يدهم على ملك كسرى وقيصر ويرفعون راية الاسلام فى كل مكان يصلون إليه .

وفتحت فارس وفتحت الشام وفتحت مصر ، وفتحت بلاد المغرب من برقة وتونس والجزائر ومراكش إلى مضيق جبل طارق . وفتحت السند

وبخارى وخوارزم وسمرقند إلى كاشغر وفتحت الأندلس .

وامتزج العرب الفاتحون بأهل الأقطار التي دخلوها :

وقضت تعاليم الاسلام في الفتح أن يدعو أهل البلاد المفتوحة إلى الاسلام فان لم يقبلوا دعوا إلى أن يسلموا بلادهم للمسلمين ولهم أن يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية فان قبلوا كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . فان لم يقبلوا الاسلام ولا الدخول تحت حكمه ولا دفع الجزية أعلنت عليهم الحرب . فان طلب المحاربون صلحاً أثناء الحرب أجيبوا إليه . وفي هذا حديث رسول الله « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فان قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

وحمى الاسلام البيع والكنائس والمعابد . وجعلت الجزية ضريبة دفاع عمن لم يسلم وحماية لهم . وكانت القاعدة توزيع أربعة أخماس الغنائم للمقاتلة وارسال الخمس إلى الخليفة ليرده إلى بيت المال .

وقد كانت الدول المتاخمة للجزيرة العربية تقاسي كثيراً من الاضطراب والتمزق والخسف ، ولذلك أسرعت بالانضواء إلى الفاتح الجديد ورضيت به ، وقد زاد هذا قوة روح التسامح التي كان يحملها المسلمون . فقد مكنوهم من حرية ممارسة شعائر أديانهم دون أن يقسروهم على أوضاع معينة أو نظم خاصة وقد أمّن عمر بن الخطاب أهل ايلياء بعد فتحها « أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، سقيمها وبريئها وسائر ملتها أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد » .

وبدأ الجهاد فى صورة سرايا ومناوشات ، ينتظمها أفراد من المسلمين يرسلهم الرسول إلى شاطىء البحر أو طريق القوافل . وقد بدأت هـذه السرايا بعد الهجرة بثمانية أشهر وكان على رأس السرية الأولى « حمزة ابن عبد المطلب » وخرج الرسول على رأس اثنى عشر شهراً على رأس سرية ثم لم يلبث أن خرج مرة ثانية وثالثة .

ثم كانت سرية عبد الله بن جحش من أهم السرايا إذ دفع إليه كتابا وطلب إليه إلا يفضه إلا بعد يومين من مسيره . فاذا فيه قوله « إذا نظرت فى كتابى هذا فأمض حتى تنزل نخله (بين مكة والطائف) فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم . »

وكانت هذه كلها مقدمات لغزوة بدر الـكبرى التى ندب لها الرسول المسلمين عندما همت قافلة أبى سفيان أن تعود من الشام ، وقد قوم ما فيها بخمسين ألفا من الدنانير فقال لأصحابه : هذه عير قريش فأخرجوا إليها لعل الله ينفلـكموها . وعلم أبو سفيان بالأمر فحاذى البحر حتى لا يقع فى طريق المسلمين ، وأرسل إلى أهل مكة ضمضم بن عمرو الغفارى يستنفر قريشا ويخبرهم أن محمداً وأصحابه قد عرضوا لقافلتهم . وهبت قريش تدافع عن مالها .

ومر أبو سفيان بقافلته ولـكن قريشا أرادت أن ألا تعود إلا بعد أن ترد بدراً وأنزل الله قوله « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لـكم وتودون أن غير ذات الشوكة تـكون لـكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع

دابر الـكافرين » والتقى الجمعان . ثلاثمائة من المسلمين وألف من أهل مكة. وانتهت المعركة بنصر القلة المؤمنة .

ثم توالت الغزوات : أحد ، والخندق ، والحديبية وخيبر .

ثم فتح المسلمون مكة وحطموا الأصنام ، ودخلوها من غير حرب ولا قتال . ثم غزوا حنين والطائف وتبوك .

وفي هذه المعارك أبلى المسلمون بلاء حسنا ، وقدموا أنفسهم فداء لدعوتهم ، فقد باعوا أنفسهم الله ، وصدقوا الله عهدهم . واستقر الاسلام في شبه الجزيرة وتوطدت أركانه وهابه الناس ودخلوا فيه أفواجا .

غير أنه ما كان رسول الله يلحق بالرفيق الأعلى حتى ارتدت جزيرة العرب فانفذ أبو بكر إحدى عشر جيشا في يوم واحد إلى أطراف الجزيرة في سبيل الدفاع عن الاسلام الوليد الذي كاد أن يزلزله ظهور المتنبئين الذين أدعوا النبوة .

ومضى خالد بن الوليد إلى الحيرة في أطراف العراق لفضها واستولى عليها وعلى الأنبار وتقهقر الفرس أمام جيوشه ثم ندب خالد إلى معارك الشام وترك المثنى بن حارثة ثم سعد بن أبي وقاص ، وترك خالد لأهل البلاد المفتوحة تولى إدارتها . وعفى عن الثائرين في البلاد المرتدة في سبيل استقلالها .

وفي القادسية جرت موقعة ضخمة التقى سعد ومعه سبعة آلاف مع رستم قائد الفرس في جيش يبلغ ثلاثين ألفا ، ثم توغل سعد في بلاد العراق واستولى على المدائن عاصمة الفرس . ثم التقى المسلمون والفرس في نهاوند وانتهت بانتصار سعد وصحبه .

ووصل خالد إلى الشام وهناك أبو عبيدة وعمرو بن العاص ويزيد ابن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنه وكل منهم يقاتل جهة بمفرده ، فاقترح عليهم ضم القيادة وتوحيدها .

وبذلك استطاعوا مواجهة الرومان جبهة واحدة فى « اليرموك » فانتصروا عليهم وخسر الروم مائة وأربعين ألفا .

وحاصر المسلمون دمشق وشددوا الحصار عليهم سبعين يوما . ثم انتهزوا فرصة ذات ليلة ففتحوا ثغرة نفذوا منها إلى داخل المدينة ومضى العرب يفتحون قيسارية والرملة وإيلياء .

ثم حاصروا بيت المقدس أربعة أشهر لم ينقطع فيها القتال . ثم طلب أهل بيت المقدس الصلح على أن يتم مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فرحل إلى الجابية وكتب لأهل إيلياء كتابا .

واتجه عمرو بن العاص إلى مصر حيث استولى على بلبيس ، ودار القتال حول حصن بابليون ثم حاصره عمرو سبعة أشهر حتى نفذ مافيه من مؤن ثم طلب المقوقس الصلح . ثم مضى عمرو ففتح الاسكندرية .

وامتدت الفتوح فى عهد عثمان إلى بلاد طبرستان على يد سعيد بن العاص وغزا عبد الرحمن بن ربيعة بلاد الخزر (بلاد الترك) ومضى معاوية بن أبى سفيان إلى عمورية فى آسيا الصغرى حيث استولى على جزيرتى رودس وقبرص ثم إلى أرمينية حتى وصل قاليقلية .

وامتد الفتح من مصر إلى أفريقية حيث مضى عبد الله بن سعد بن أبي السرح ثم لحق به عثمان بن عبدالله بن الزبير ثم فتحت الأندلس على يد طارق ابن زياد وموسى بن نصير وغزا المسلمون جنوب فرنسا وروما واستولوا على جزر البليار فى البحر الأبيض المتوسط .

وتوقفت الفتوح ثمة أثناء الخلاف بين على ومعاوية ثم امتدت مرة أخرى حيث غزا المهلب بن أبى صفرة ما بعد بلاد السند فيما يلى خراسان حتى وصل إلى لاهور .

وأرسل معاوية سنة ٤٧هـ جيشـــا يفتح القسطنطينية برا وبحرا ولم يستطع المسلمون فتحها ومضى عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ من برقة فى عشرة آلاف جندى إلى قلب أفريقيا ففتحها وأسلم على يديه كثير من البربر ، وبنى مدينة القيروان .

وفى سنة ٨٦ — إبان خلافة الوليد بن عبد الملك — خرج قتيبه بن مسلم والى خراسان إلى بلخ ثم أغار على الصغد وفتح بيكند وواصل قتيبة فتوحه إلى بلاد كرمينيه ثم إلى بخارى وفى سنة ٩٣ فتح مدائن خوارزم ، وسمرقند ، وفتح فرغانه وخجنده ثم كاشان .

ولم يلبث قتيبة أن مضى فى إقليم ما وراء النهر حتى وصل سنة ٩٦ إلى حدود الصين على رأس جيش كثيف وقال لوفد ملك الصين كلمته المشهورة « إن أول خيلنا فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون » ووطأ أرضهم ، وختم ملوكهم وحمل الجزية وعاد.

وفتح قتيبة مدينة سمرقند وأحرق الأصنام .

ومضى محمد بن القاسم سنة ٧٩ إلى بلاد السند فنزل بثغر الديبل ثم اتجه إلى بيرون ومهران . وتابع فتوحاته إلى مولتان (فى جنوب البنجاب) ثم دانت له بلاد السند .

ومضى موسى بن نصير يوطد الفتح فى المغرب حتى وصل مدينة سبته الحصينه وغزا طريف بن مالك سنة ٩١ على رأس خمسمائة مقاتل بعض ثغور الأندلس الجنوبية ثم أعد موسى جيشا فى سبعة آلاف مقاتل معظمهم من البربر على رأسه طارق بن زياد حيث عبر البحر سنة ٩٢ ونزل بأقليم البحيرة فى جنوب أسبانيا والتقى بجيش رودريك على ضفاف نهر بكه فتم له النصر ومضى طارق يزحف على مواقع الأندلس فاستولى على أشبيلية وقرطبة وطليطله .

ثم واصل موسى الغزو من جهة أخرى حتى التقى بطارق ، ثم سارا لفتح شمال بلاد الأندلس ، ففتحا أقاليم أرغونة وقشتالة وكتالونيا واستوليا على سرقسطه ، وبرشلونة ، ثم سارا حتى بلغا جبال البرانس .

وفى سنة ١٠٠ هـ جدد السمح بن مالك الخولانى الفتوح فاخترق جبال البرانس وزحف على مقاطعتى سبتمانيا وبروفانس ، ثم أغار على اليغانيا وحاصر تولوز ، فى سنة ١٠٤ غزا عنبسة بن سحيم الكلبي بلاد غاله ووصل إلى حوض الرون وتوغل فى أقليم برغندية حتى بلغ مدينة ليون .

ومضى عبد الرحمن الغافقى سنة ١١١ هـ فاستولى على بلاد غاله فخرج فى ثمانية ألف مقابل واستولى على دوقية اكيتانيا ، وهنا تجمع الفرنجة تحت قيادة « كارل مارتل » لمواجهة العرب بالقرب من بواتية ودارت بينهما معركة (تور) وانتهت بهزيمة المسلمين بعد أن أصيب عبد الرحمن بسهم أودى بحياته . وكانت هذه المعركة إيذانا بتوقف الفتح فى هذا الوجه .

واتجهت حملة من مقر الخلافة فى دمشق للاستيلاء على القسطنطينية سنة ٩٦ واستولى المسلمون على بلاد أسيا الصغرى حتى وصلوا إلى أسوار القسطنطينية وتبعهم الأسطول الإسلامى من الثغور الشامية والمصرية ، ولم يتمكن المسلمون للمرة الثانية من اقتحام هذا الثغر إذ فتكت بهم النار الأغريقية فارتدوا .

واستولى المسلمون على البحر الأبيض المتوسط وأصبحت فى أيديهم جزر صقلية ورودس وأقريطش وصقلية وسردانية وجزائر البليـــار (ميورقة ومنورقه) .

وكان قائد الحملة فى غزو صقلية أسد بن الفرات ، ووصل المسلمون إلى جنوب إيطاليا ٢٣٢ هـ ثم نفذوا إلى روما ثم توقفت حركة الفتح الإسلامى حتى استطاع العثمانيون غزو القسطنطينية والاستيلاء عليها سنة ٨٧١ هـ .

بدأ الخلاف حول الخلافة بعد وفاة الرسول واختلف أهل المدينة فيمن تؤول إليه واجتمع فريق من الأنصار فى سقيفة بنى ساعده . وقال المهاجرون أنهم أحق بها لأنهم هم الذين آووا ونصروا النبي وأصحابه وقت الشدة ودافعوا عنهم . وقال المهاجرون أن هذا الأمر فيهم وأن أمر العرب لا يصلح إلا إذا وليته قريش. وعرض أبو بكر عليهم مبايعة أحد صاحبيه عمر أو أبو عبيدة . وقام عمر فبايع أبو بكر « وقال ألم يأمر النبي بأن تصلى أنت بالمسلمين فأنت خليفته وإننا إذ نبايعك نبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا .

ورسم أبو بكر خطته فى أول كلمة ألقاها على المسلمين « إنى وليت هذا الأمر وانا له كاره إلا وأنكم أن كلفتمونى أن أعمل منكم بمثل عمل رسول الله لم أقم به . لقد كان رسول الله عبداً أكرمه الله بالوحى وعصمه به ألا إنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم . أيها الناس . انى قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فاعينونى ، وأن أسات فقومونى ، الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق منه . لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله فيكم فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

ولما ولى الخلافة ورأى من أعبائها قال والله ما يصلح أمر الناس والتجارة وما يصلح إلا التفرغ والنظر فى شأنهم ولا بد لعيالى ما يصلحهم .

ولما قيل له ياخليفة الله قال لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله . ولم تغير الخلافة منه شيئا ، فى داره أو حياته .

ولما مرض أبو بكر وأحس بدنو الموت ،خشى أن يدع المسلمين دون أن يستخلف عليهم ، فمضى يسأل أصحابه عن عمر . سأل عنه عبد الرحمن ابن عوف وعثمان وسعيد بن زيد واجملوا رأيهم فى أن عمر كفء لها ولكن فيه غلظة وأجاب أبو بكر بأن عمر انما كان غليظا لأنه كان يرانى رقيقاً فلما أنهى مشورته دعى عثمان بن عفان فأملاه كتاب عهد فيه لعمر قال فيه « قد استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن بر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه وأن جار وبدل ، فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت ، ولكل أمرىء ما اكتسب وسيعلم الذى ظلموا آى منقلب ينقلبون » وقال اللهم إنى استخلف على أهلك خير أهلك وجاء به : انى مستخلفك بعدى وموصيك بتقوى الله . ورد أبو بكر ماعنده من مال إلى بيت مال المسلمين ورد أرضه بمكان كذا وقال هى للمسلمين بما أصبت من أموالهم . وقال عمر لقد أراد أبو بكر ألا يدع لأحد بعده مقالا .

ولما ولى عمر الخلافة قال « انما مثل العرب مثل جمل أنف ، أتبع قائده فلينظر قائده حيث يقوده ، أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق . بلغنى أن الناس هابوا شدتى وخافوا غلظتى ، وقالوا قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ومن قال ذلك فقد صدق .

أنني كنت مع رسول الله فكنت عبده وخادمه وكان من لا يبلغ أحد صفة من اللين والرحمة وكان كما قال الله ، بالمؤمنين رءوفا رحيما . فكنت بين يديه سيفا مسلولا حتى يغمدني أو يدعني فأمضي فلم أزل مع رسول الله حتى توفاه الله وهو عني راض .

ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا تنكرون دعته وكرمه ولينه فكنت خادمه وعونه اخلط شدتي بلينه فأكون سيفا مسلولا حتى يغمدني أو يدعني فأمضي فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عني راض.

ثم انى قد وليت أموركم أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ولكنها انما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين . فأما أهل السلامة والدين والقصد فانا الين لهم من بعضهم لبعض . ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض . وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق .

ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها . لكم على ألا اجتبي شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم من وجهه . ولكم على إذا وقع في يدى ألا يخرج مني إلا في حقه . ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم . وأشد ثغوركم . ولكم على ألا القيكم في المهالك ولا أجركم في ثغوركم . وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال .

فاتقوا الله واعينوني على أنفسكم بكفها عنى ، واعينوني على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

ولما طعن عمر بعد عشر سنوات من حكمه ، طلب إليه المسلمون أن يستخلف عليهم فلم يشأ أن يحمل المسلمين حيا وميتا وقال « أن استخلف فقد استخلف من هو خير منى ، وإذا تركت فقد ترك من هو خير منى .

وقال « لو أدركت أبا عبيدة أو معاذ أو خالد لوليته » ثم عزم على أن يستحلف النفر الذين توفى الرسول وهو عنهم راض فجعل الخلافة شورى بين الستة المهاجرين الأول على وعثمان وطلحه والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن وقاص .

وكان أبرز المرشحين هما : عثمان وعلى . واختار عبد الرحمن بن عوف « عثمان » بعد أن تحرج على فى أن يسير على ماسنّه أبو بكر وعمر وخطب عثمان عند توليه الخلافة فقال « أنكم فى دار قلعة ، وفى بقية أعمار ، فبادروا أجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد آتيتم صبحتم أو أمسيتم ، إلا وأن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . واعتبروا بمن مضى ثم جدّوا ولا تغفلوا فانه لا يغفل عنكم » .

وانتهى أمر عثمان بعد ست سنوات بالقتل بعد أن اتسعت شقة الخلافة بينه وبين أهل الأمصار الذين قدموا فى موسم الحج . وكان ذلك فى ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ وتولى « على » أمر الخلافة على صورة تختلف كثيرا عن انتخاب أبى بكر وعمر ، إذ كان أغلب الصحابة قد تفرقوا فى الأمصار .

وقتل « على » بيد عبد الرحمن بن ملجم أحد الخوارج الثلاثة الذين خرجوا فى ١٧ رمضان سنة ٤٠ لقتل على ومعاوية وعمرو بن العاص ، وقد هيء بذلك

سبيل الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان الذي كان قد دعا لنفسه بعد حكم الحكمين وبمعاوية بدأ عهد الملوك إذ دخلت الخلافة في دور الوراثة .

وأعلن الحسن بن علي تنازله عن الخلافة لمعاوية وبذلك صفا الجو أمام هدف معاوية الذي دعا له بقوة . وهو المبايعة ليزيد ، وقد تحقق له ذلك على الوجه الذي أراده . فاستقدم سادة البلاد الذين أعطوه موثقهم ، ثم قصد إلى موسم الحج وأعلن البيعة له وسجلها في كتاب مسطور .

ومات معاوية سنة ٦٠ وولي الخلافة يزيد بن معاوية الذي ترك له معاوية وصية مكتوبة « أنظر إلى أهل الحجاز منهم أصلك وعشرتك فمن أتاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتعاهده . وأنظر أهل العراق فان سألوك عزل عامل كل يوم فاعزله ، وانظر إلى أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار فإن رابك من عدوك ريب فأرحه بهم . ثم أردد أهل الشام إلى بلدهم ولا يقيموا في غيره فيتأدبوا بغير أدبهم . لست أخاف عليك إلا ثلاثة الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر »

وولي الخلافة بعده معاوية الثاني ، ولم تطل أيامه ، ثم مروان بن الحكم ، فعبد الملك بن مروان ثم خلفه ابنه الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦) فسليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩) .

ولما حانت وفاة سليمان أشار عليه سالم السدي وهو أحد خاصته أن يكتب العهد لعمر بن عبد العزيز فكتب له عهداً ، فلما مات وأعلن ولاية عمر ابن عبد العزيز في صفر عام ٩٩ ، أعلن عمر عزل نفسه ودعا الناس إلى إختيار

خليفة سواه ، فاختاروه هو ولم تطل أيامه فى الخلافة (٩٩ — ١٠١) وكان مثلا رائعا للحكام ، جدّد عهد عمر بن الخطاب .

ولما توفى عمر ولى الخلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥هـ) فهشام ابن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥) فالوليد بن يزيد (١٢٥) فروان بن محمد (١٢٧ — ١٣٢) وهو آخر خلفاء بنى أمية .

ثم ولى الخلافة بنى العباس بعد أن قام أبو مسلم بحركته التى انتهت بهزيمة الأمويين وولاية العباسيين وقد بدأت بأبو العباس السفاح (١٣٢ — ١٣٦) وكانت صورة أخرى من صور الملك العضود ، كانت فيها سمة الاعتداد بالنفس ، بعيدة كل البعد عن روح الخلافة الراشدة وهذا نموذج لخطاب العباس « الحمد لله الذى اصطفى الاسلام لنفسه تكرمه ، وشرفه وعظمة ، واختاره لنا ، وأيده بنا ، وجعلنا أهله ، وكهفه وحصنه ، والقوام به ، والذابين عنه ، والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله وقرابته ، وأنشأنا من آبائه ، وانبتنا من شجرته ، واشتقنا من نبعته .

زعمت السبئية الضلال ، أن غيرنا أحق بالرئاسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ، بم ولم أيها الناس ٠ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وانقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ودحض بنا الباطل » .

وخلف السفاح ، المنصور ، فالمهدى ، فالهادى ، فهارون الرشيد ، فالأمين فالمأمون ، فالمعتصم فالواثق ...

واستمرت الخلافة قائمة حتى سنة ٦٥٦ هـ حيث استولى التتار بقيادة هولاكو على بغداد فى عهد المعتصم آخر خلفاء العباسيين وظلت الخلافة معطلة حتى ردها إلى مصر الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ

دعا الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ عم آخر الخلفاء العباسيين (المستنصر بالله) إلى القاهرة واحتفل بتعيينه خليفة فى قلعة صلاح الدين حيث أعلن القضاء صحة نسبه وبايعه بيبرس وكبار رجال الدولة .

وكان هذا بدء لحلقه متصلة من الخلفاء الذين أقاموا بمصر ، مدة قرنين ونصف ، كان منصب الخلافة خلالها منصبا رمزيا أراد به المماليك تأكيد مركزهم فى نظر الشعب · ولم يكن للخليفة أن يشترك فى أى عمل من اعمال الدولة · وقد بلغ عدد الخلفاء الذين تولوا المنصب فى القاهرة ١٣ خليفة ·

وفى نفس الوقت الذى كانت الخلافة العباسية قائمة فى بغداد قامت فى مصر خلافة الفاطميين التى امتدت من سنة ٢٩٧ هـ إلى سنة ٥٦٧ وكان أول خلفائهم المعز لدين الله الفاطمى . وقد أزالها صلاح الدين الأيوبى .

وفى الأندلس قامت خلافة أخرى بدأت فى عهد عبد الرحمن الناصر سنة ٢٢٧ هـ وامتدت إلى آخر حكم المسلمين فى الأندلس وكان آخر خلفائهم ابو عبد الله سنة ٨٩٧ هـ .

وعند ما استولى العثمانيون على مصر بعد هزيمة مرج دابق نقل السلطان سليم مراسيم الخلافة إلى القسطنطينية .

وظلت الخلافة الأسلامية مستقرة فى القسطنطينية منذ سنة ٩٢٣ هجرية

بعد أن نزل الخليفة محمد المتوكل على الله عنها إلى السلطان سليم إلى أن ألغاها مصطفى كمال على دفعتين .

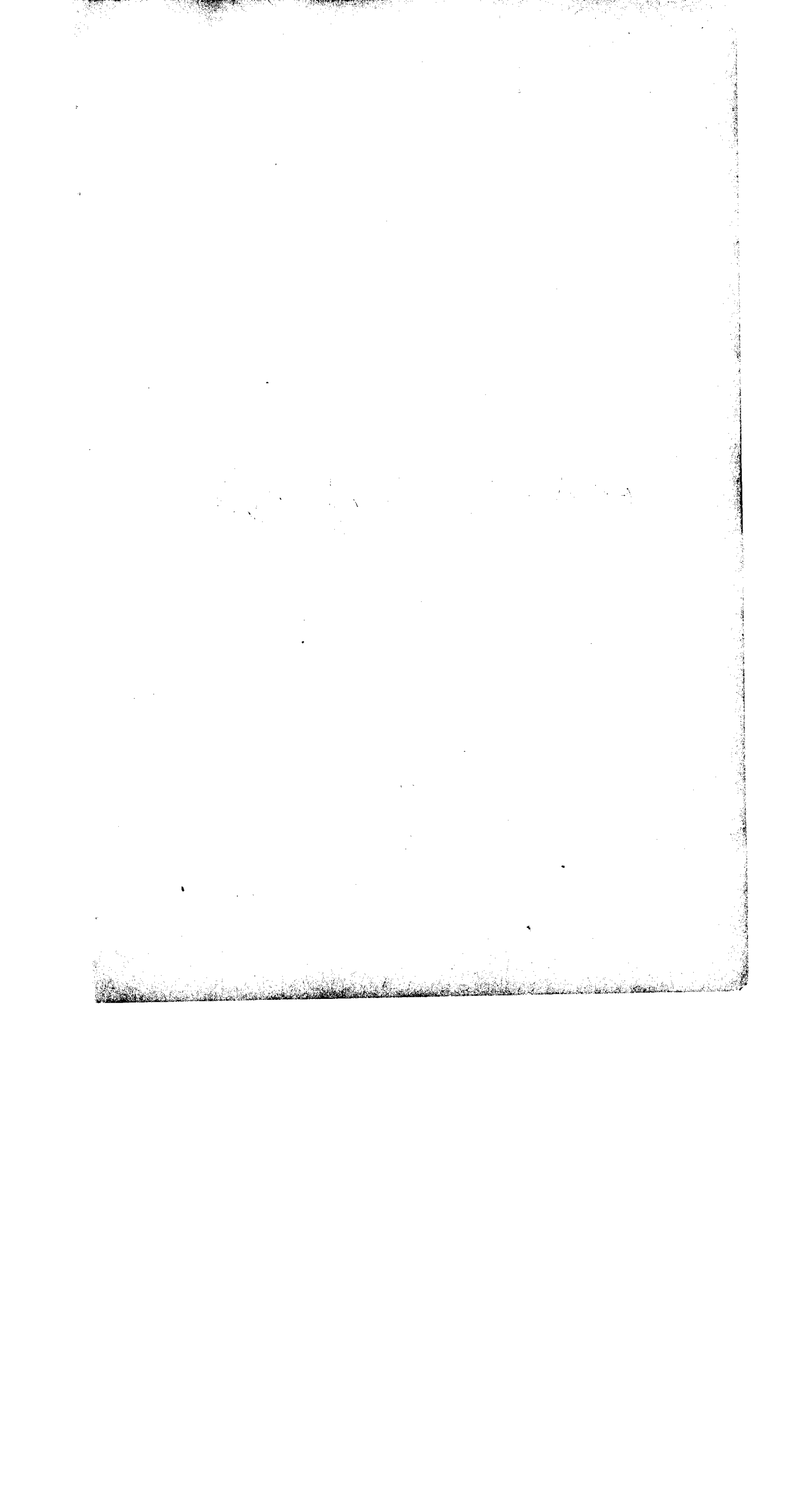
كان السلطان محمد وحيد الدين هو خليفة المسلمين أبان الحرب العالمية الأولى وقد سلم للمنتصرين بعد هزيمة تركيا والمانيا واحتلال الحلفاء للقسطنطينية وعلى أثر ذلك قام الشعب التركي بقيادة مصطفى كمال يدافع عن بلاده وعقد مؤتمرا بمدينة أنقرة من نواب الأمة ووافق المؤتمر على تأليف حكومة وطنية يكون رئيسها مصطفى كامل . وبهذا أصبح هذا الحاكم الحقيقي للبلاد لا السلطان محمد وحيد الدين .

وفصل مصطفى بين السلطنة والخلافة وخلع السلطان محمد وحيد الدين . وولى الخليفة عبد المجيد آل عثمان خليفة على المسلمين بعد تجريده من كل سلطة دينوية . وقد جعل مقر الخليفة مدينة القسطنطينية ومقر الحكومة في أنقرة وكان ذلك في أول نوفبر ١٩٢٢ .

ثم خطا الخطوة التالية إذ حول تركيا إلى جمهورية لها رئيس يتولى أمرها في ٢٧ أكتوبر ١٩٢٣ (١٧ ربيع الأول ١٣٤٢) .

وأخرج الخليفة عبد المجيد آخر خلفاء آل عثمان من القسطنطينية في ١٧ شعبان ١٣٤٢ (٢٣ مارس ١٩٢٤) وكذلك أمراء آل عثمان بعد إلغاء الخلافة رسميا .

أضواء على الفكر الاسلامي



بين الفقهاء والصوفية

تطور الفكر بعد الاسلام فأصبح فكراً إسلاميا ، فقد غلبت روحه على الأدب والعلم والحياة ، وصبغتها بصبغة شاملة كاملة ، ثم ما لبثت هذه الصبغة أن ضعفت في أعناصرها لا في جوهرها ، بحكم التطور والتحول ، فتبلورت ، وانبثقت نزعات عربية محضه ، ونزعات فارسية خالصة ، ونزعات فلسفية معقدة ، ثم نزعات صوفية مختلفة .

وكانت هذه العناصر ، تعيش تحت ظل « الفكر الاسلامي » فلا تنفصل عنه ، ولم يكن لها من القوة ما يحملها تستقل ، وإنما ظلت فروعا منها وأجزاء .

وكان « الزهد والتصوف » من هذه الفروع ، التي صادفت هوى عند الكثير من الباحثين الأجانب فأولوها عناية خاصة ، وأوغلوا فيها وتحدثوا طويلا ، حول مدى إصالتها الاسلامية ، ومدى أثر الأفكار المسيحية والأفلاطونية الحديثة في الوصول بها إلى ما وصلت إليه من مراحل التعقيد والقوة والتحول في العصور المختلفة وهناك « الاعتزال والمعتزلة » ومدى صلة مذهبهم بالاسلام ، وعلاقته بأهل السنة وما سوى ذلك من تفاصيل .

وهناك المذاهب الشيعية ، ومدى صلتها بالاسلام ، ومدى صحة ما أثير حولها من غبار الشبهات من أن الفرس دخل في بعض ما صادفته من تطرف أو اغراب .

والواقع أن دراسات مثل هذه المظاهر المختلفة للفكر الاسلامي، المتعددة المختلفة، المتضاربة في بعض الأحيان، يجب أن تلازمها مراجعة دقيقة للعصور الإسلامية نفسها. من الوجهة السياسية والاجتماعيه، ومدى مايطرأ على المجتمع الاسلامي من تغير وتحول، وبروز عوامل جديدة كان من أسبابها الفتوح، وغلبه الفرس، ثم غلبه الترك، وغلبه الشيعة، وانتصار مبادىء السنة آنا ومبادىء الاعتزال آنا آخر.

واتصل بهذا احداث، فتنة خلق القرآن وموقف أهل السنة منها، ومدى ما أوغل فيه الخلفاء كالمأمون والمعتصم من حمل الناس بالقوة على اعتناق هذا المذهب. ثم ما كان بعد ذلك من تغير، يكاد يكون انقلابا، حين جاء من بعدهم من الخلفاء فأيدوا أهل السنة تأييدا مطلقا، وخاصموا المعتزلة خصومة جافيه منكرة، وكذلك يجب أن نذكر، أن مذهب الاعتزال، ظهر في وقت كان الفكر الاسلامي في أشد الحاجة إلى ظهوره، وكان لظهوره أبعد الأثر في تركيز الاسلام نفسه والوصول إلى إجابات مفحمة قوية، من نفس المنبع والاتجاه، وعلى غرار الوسائل والأساليب، التي كان يستعملها خصوم الاسلام إذ ذاك، وهي الفلسفة اليونانية وغيرها من أساليب المنطق والجدل ...

وتكاد غلبة روح التصوف والزهد أن تكون حقيقة تاريخية، تكاد تشبه ما نطلق عليه في أيامنا «سد الفراغ» فقد غلبت روح الثراء والترف والتفنن في المتاع واللذائذ والتهالك عليها حداً بعيداً أغرى متوسطي الحال

وبلبل أفـكارهم وكاد أن يسوقهم إلى شر كبير ، فـكانت الصوفية وكان الزهد ، هو العلاج السيكولوجي الذى يكشف هذه العقد ، وينقلها إلى حالة الجهر والاعلان ، وهو مركب التسامى الذى يلده الشعور بالعجز والنقص عن الجرى فى ميدان الثراء والترف الذى انتقلت إليه الدول الاسلامية فى ذلك الوقت ·

كما أن المذاهب الصوفية جاءت فى أبانها وأوانها ، فقد وصل التصوف إلى دور الحدة والتطرف . ووصل الفقه والتصوف معا إلى مرحلة الصراع المنيف المرير ، ظن معه ، أنه يستحيل الجمع بين الفقه والتصوف وأنهما عدوان لدودان · حتى جاء الغزالى فصب الفقه والتصوف فى كوب واحدة ، وجمع بين عقل الفقه وروح التصوف ، فاكسب التصوف حكمة الفـكر فتماسك عوده وأضفى على الحياة مرونة وخصوبة ·

ثم جاءت دعوة العودة إلى السلفية فى أبانها بعد أن أصاب الصوفية والفقه ما أصابهما من اضطراب تورطت خلاله الصوفية فى لون من الأغراب فى الدراسات الإلهية وغيرها ، وجمد الفقه وقفل باب الاجتهاد ، وألح الفقهاء على التقليد بروح مغلقة النوافذ ، فيها انحدار وهبوط .

فجاء ابن تيمية لحمل حملته على الفقه والتصوف معا ، وحارب الفقهاء والصوفية جميعا وطالب بالعودة إلى إسلام السلف البسيط الواضح ، النقى من تفلسف المعتزلة وجمود الفقهاء واغراب الصوفية ·

أما الاعتزال فقد أدى رسالته حتى وقف عند روح الجدل التى قعدها

واصل بن عطاء ، وبدأ ضعيفا حتى جاء أبو الحسن الأشعرى فدعا إلى مذهب معتدل بين الفقهاء والمعتزلة ، هو مذهب السنة الذى أطلق عليه من بعد مذهب الجماعة ، ومذهب المنزلة بين المنزلتين .

اعتمد الصوفية على القلب والذوق والمعرفة عن طريق الإلهام والباطن. واعتمد الفقهاء على ظاهر القرآن والسنة وعلى الاستنباط منهما عن طريق المنطق والعقل . وعنى الصوفى بالروح والنفس . وعنى الفقيه بالجانب الظاهر والعملى . والصوفى روحانى نفسانى والفقيه قانونى . والصوفى يعنى بالحب الالهى ولا يعنيه كثيرا أمر الثواب والعقاب ، والفقيه يعنى بأداء العبادات ويعتمد كثيرا على الثواب والعقاب .

ومن أهم أوجه الخلاف بين الفقهاء والصوفية موقفهما « من القضاء والقدر » .

فالمعتزلة وهم فقهاء يقولون بحرية الارادة . وإن الانسان له قدرة على أعماله . ويقولون أن ارادتنا حرة نعمل ما نشاء ونترك مانشاء . وهـــذه المسئولية تقتضى الحرية فلا معنى لأن يعذب أو يثاب من ليس مسئولا عن عمله . غير حر فى أن يأتى منه ما يشاء ويدع ما يريد .

أما فريق الجبرية فيقولون أن الانسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة وأن الانسان لا يستطيع أن يعمل غير ماقدر الله له . وأن الله يخلق الأفعال كما يخلق الجماد . وقد نقل الصوفية قول جهم بن صفوان هذا — وزادوا عليه وكان قاعده من قواعد التصوف .

قال الفقهاء أن مرد الأحكام جميعها إلى القرآن . وأن قول الرسول وفعله هو التطبيق العملى للقرآن ، وفى محيط الفقه والتشريع والأحكام ، وما يتعلق فيها بالعبادات أو المعاملات ، ظهر المفسرون والمحدثون والفقهاء .

وبدأ الفقه عندما هاجر المسلمون إلى المدينة وتكون المجتمع الجديد ، ونزلت آيات الأحكام تفصل للناس أمور معاشهم ومعاملاتهم ، وتبلغ فى القرآن نحوا من ستة آلاف آية ، نزلت منجمة وفق الأحداث والقضايا . وفصلت كل ما يتعلق بالزواج والطلاق والرق والبيع والزكاة والحرب والخمر والربا والزنا والقتل والسرقة والميراث .

وجاءت أحاديث رسول الله (السنة) مفصلة لهذه الأحكام . وبدأ الاجتهاد فى صورة رأى رسول الله فى المسائل التى لم ينزل فيها وحى . ثم اتسعت الفتوح فى عهد الخلفاء . ودخلت أمم وحضارات تحت لواء الاسلام . وسار القراء والمعلمون والفقهاء فى موكب الجند الفاتحين .

وفى كل قطر كانت توجد نظم فى المساقاة والمعاملات المالية لا تعرف فى الجزيرة العربيه . فبدأ العمل بالرأى . وكان الخليفة عمر وعبدالله بن مسعود من المجتهدين الذين يقولون بالرأى حيث لا نص ولا حديث . ومن ثم نشأت مدرسة للرأى بجوار مدرسة الحديث . وعرف الحجاز بأنه مدرسة الرأى .

وبدأ المجتمع الاسلامى يخرج أئمة مجتهدون حيث ظهر الفقهاء الأربعة الكبار أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ومنذ ذلك الوقت عاش المجتمع الاسلامى فى كنف هذه المذاهب وأخذت صورة رسمية لدى الحكومات

والأمم عرفت بها . فأخذت مصر المذهب الحنفي . وأخذ المغرب والأندلس مذهب مالك . وتوقف الفقه وقفل باب الاجتهاد إلى أن جاء ابن تيمية . وكان الفقهاء في عهود قوة المذاهب هم مرجع الأمراء والخلفاء وموضع إكبار الناس .

ولما أخذت الصوفية تقوى وتسيطر على مجامع الناس ، ضعف سلطان الفقهاء . وأحسوا بخطر الصوفيـة عندما أخذوا ينشرون فلسفتهم التي خالفت الفقه من قريب أو بعيد ، فأخذوا يقاومون هذا السلطان الجديد الذي أوشك أن يقضي على سلطانهم .

وبدأت فترة من الصراع ، حين رأى الفقهاء أن أصحاب الصوفية يتجاوزون الحدود ويغلون في حديثهم عن الظاهر والباطن ، فأخذوا يدافعون عن كيان الدين . وامتد الصراع إلى صور من المساجلات والمجادلات التي حملت ألوانا من الهجاء بلغت غاية القسوة والاختصام .

وعجز الفقهاء في كثير من الأحيان عن ضبط النفس والوقوف عند سمت العلماء فقد كانوا يرون سلطانهم ينهار ويتلاشى تحت ضغط تفشي الصوفية وتألقها والتفاف الناس حولها وبلوغ أقطابها المكان الاسمى في نظر الجماهير .

وقد جرت محاولات كثيرة لاغتيال شخصيات صوفية كبرى كالشعراني كما زيفت آراؤهم وأضيف إليها ما لم يقله أصحابها .

ورمى الفقهاء الصوفية بالجهل والقصور عن فهم الفقه . وكانوا يرونهم

دونهم فى ميدان الفهم والثقافة والروحية . ويقولون أنهم يجمعون الناس حولهم بالدجل والتهويش وخداع المظاهر وبريق الألفاظ .

لم يظهر التصوف أيام الدعوة الأولى . ولم يكن واضحا معروفا أيام الفتوح والغزوات . وإنما ظهر فى ميعاده الموقوت . عندما اتسعت رقعة المملكة ، واضطرب أمر الدين وظهرت الطوائف الملحدة وبرز الراوندية والخرمية والزنادقة .

بدأ التصوف وأهدافه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومناصحة الحاكم . ومضى فى هذا الطريق شوطا . ثم تحول عن طريقه فأصبح يحمل معنى الصبر تحت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وبذلك انتقل من إصلاح المجتمع إلى التربية الفردية . ومن ثم أخذ الصوفية صفة السلبية فى نشاطهم وتفكيرهم .

واتى التصوف أنصاراً يقبلون على الزهد ، وينفرون من الدنيا ، تحت ضغط ظروف المجتمع وانتشار الظلم وطغيان بعض الطوائف واقبال الناس على الدنيا .

وفى صدر العصر الأموى ظهر هؤلاء الذين رغبوا عن الحياة الاجتماعية المضطربة باللهو والخلاعة والتهتك وانطلقوا إلى حياة هادئة تمثل أبسط ما فى الاسلام من سذاجة واعتدال . وكانت الحياة السياسة إذ ذاك مضطربة والفتنة ناشبة بين الفرق والشيع ، والمعارك مستعرة بين القادة والأمراء ، والخلفاء طلاب الملك .

ويرمى التصوف فى صميمه إلى القناعة ونفض اليد من البريق وشغل

القلب عن المتاع والانصراف عن زخرف المال والنضار ، إلى ما هو أسمى ، رضوان الله وطاعته . وهو يدعو إلى القصد فى متاع الدنيا رجاء متاع الآخرة . والانصراف عن حلال المتاع خوف الوقوع فى حرامه . ويهدف إلى حرمان النفس مما تتطلع إليه وما هو أيدى الناس .

ولقيت دعوة التصوف من الناس صدى ، فقد ظهرت بعد أن توقفت الفتوح ودخل عظماء المسلمين وأمراؤهم فى دور الترف . فكان ردءاً من الخطر ، رأى فيه المجاهدون بالسيف لونا جديدا من الجهاد ، جهاد النفس واخلاص النية لله وطلبوا فى ظلاله النجاة من براثن الترف وازوروا عن المجتمع المضطرب خشية الوقوع فى الحرام . فكان ذلك جهاداً سلبياً .

ومن أهم رواد هذه الحركة الحسن البصرى ومن اتباعه ذو النون المصرى والجنيد والقشيرى والشبلى ورابعه العدوية وقد ظهروا فى القرن الثالث وما بعده . وعرف عنهم انفاق الليل فى الصلاة والقيام واغراق النفس فى العبادة والتهجد ولبس الصوف وخشن الثياب . وأكل القليل والازورار عن الناس .

ولم يكن التصوف بعد قد أخذ صورته الحاده ، فقد مزج هؤلاء الناس به حياتهم وجعلوه عونا على النضال وفطاما من شبهات الحياة .

ولا شك أن روح الزهد هى التى فتحت للمسلمين أبواب النصر فى المعارك والفتوح ، هى التى دفعت خالد إلى المغامرة المخيفة فى صحراء الشام. وأوقفت عقبة بن نافع على شاطىء البحر يضرب ماءه بحافر جواده ويقول

رب لو كنت أعلم أن هناك أرضا وراء هذا العباب لاقتحمتها بجوادى مجاهداً فى سبيلك .

هذه هى الصوفية الناصعة الصافية ، التى كانت تعتصم باحتقار المغانم والأموال والجاه فى سبيل الله وترى رجالها فوق سروج الخيل وفوق أطباق الماء وفى أعماق الصحراء ورمالها .

وقد عرف كثير من الفرسان بهذه الروح الصوفية القائمة على الشجاعة والمروءة منهم جعفر الصادق والفضيل وسهيل الذين كانوا من أقطاب كتائب الفتوة .

ولم يكن هذا فى الواقع كل الحق ، فقد كان من الصوفية علماء ومجتهدون : أمثال القشيرى والغزالى والشعرانى الذين كانوا أقطابا فى العلم والفقه ولهم آثار ضخمة تشهد بنبوغهم وقدرتهم .

ولا شك أن الانتاج الصوفى الرائع ، الذى خلقه رجال الصوفيه يقطع بأنهم كانوا على جانب كبير من الثقافة والعلم ، وقدرة على خوض معارك البلاغة والبيان .

ووفق هذا الاتجاه كان موقف الصوفية من الفقهاء ، هو موقف المسالمة والصبر واحتمال الأذى والتماس الأعذار لخصومهم ، آخذين بالعفو عنهم . وإن أخذ عليهم تهافتهم على الدنيا وتكالبهم على مظاهرها وانطواؤهم تحت سيطرة لواء الأمراء والولاة .

وقد كان لهذا الصراع أثره فى مقتل السهروردى . فقد أثار العلماء

حفيظة صلاح الدين عليه بعد أن كان أثيراً عنده ، ولكن وشاياتهم واتهامهم له بأنه زنديق ملحد ، أدت إلى مقتله فقد ناظره علماء حلب فانتصر عليهم وأزعجتهم صداقته لصلاح الدين ، وكان السهروردى يمثل جانب التصوف المغرق فى النقل من فلسفات اليونان والفرس .

واصطدم الفقهاء والصوفية فى العراق ، لشدة تمسك الحنابلة بظاهر النصوص . وأنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبى كلامه فى التصوف ، ورمى الحنابلة الصوفية بالزندقة . ومن هذه الحوادث الفتنة التى أثارها « علام الخليل الحنبلى » حين أتهم الصوفية بالزندقة ، فلما اصطدما قبض الخليفة على سبعين من الصوفية وقتل كثيرا منهم . وكذلك فتنة الحلاج حين اتهم بالكفر ودعوى الألوهية وصدرت الفتوى من الفقهاء بتكفيره وأباحة دمه ، وقد قبض عليه وحوكم ، فقتل وصلب وقطعت أطرافه وأحرق سنه ٣٠٩ .

ولكن الصوفيه المعتدلين كانوا موضع تقدير الخلفاء والحكام على طول الخط لأنهم لم يكونوا يوما من الأيام أداة إصلاح أو تغيير حين قنعوا بالاصلاح النفسى الفردى وزاولوه على صور منوعة ، كان آخرها الاتجاه الواضح نحو الزهد على صورة الزوايا والربط .

وقال الصوفية ان شأن الفقهاء الفتيا والقول فى الأحكام العامة فى العبادات والعادات والمعاملات . أما هم — الصوفية — فهم رجال المجاهده ومحاسبة النفس وأهل الأذواق والمواجيد . وقالوا عن أنفسهم أنهم أهل الباطن

وكانت دعواهم أن المسلم لا يكفيه أن يقف عند حدود الشرع بل لابد أن يرق حتى يصبح من أهل الحقيقة .

وقال الصوفية أن علوم الشريعة قشور وأن التصوف هو اللباب .

وليس الصوفية وحدهم هم الذين جاهدوا فى سبيل إصلاح المجتمع بل أن الحنابلة وهم من أتباع الفقهاء عمدوا إلى أراقة الخمور ومحاربة المنكرات واوذوا كثيراً فى سبيل ذلك .

* * *

يصف ابن خلدون التصوف على أنه « العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه . والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة » .

وقد فهم ابراهيم بن أدهم التصوف على أنه الوصول إلى المثل الأعلى لكمال النفس الانسانية ومحبة الله وحده والتجرد لهذه المحبة من متاع الدنيا وقد أداه ذلك وهو ابن ملك من ملوك بلخ إلى خلع ثوب الامارة واستبداله بالاطمار وهجر حياة الغنى والثراء تقربا إلى الله .

ومضى الصوفية فى عهد قوتهم ، وإصالتهم ، ينظرون إلى المجتمع نظرة اليقظ القوى ، فكانوا يعارضون كل منكر ، يأمرون بالمعروف ، ويعارضون الحاكم إذ أخطأ وكان أحدهم يأتى قاضى مصر وهو فى مجلس الحكم فيقول له « يأيها القاضى : ذهب الإسلام ، فعل كيت وكيت . فيترك المجلس ويمضى معهم »

ومن الموجهين فى الحياة الاجتماعية ذو النون المصرى والسرى السقطى.

ثم لم تلبث الصوفية — كأى مذهب — أن انحرفت عن هدفها .
وسجل القشيرى هذا المعنى فى رسالته حيث قال « اندرست الطريقة بالحقيقة
ومضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء . وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم
وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه . واشتد الطمع وقوى رباطه.
وارتحلت عن القلوب حرمه الشريعة فعدت قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة .
ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام » .

وفى هذه المرحلة بلغ التصوف حده المحفوف بالخطر ، حين تحولت
نظرية التصوف البسيطة إلى ألوان حادة معقدة فيها وحدة الوجود وسقوط
التكليف .

واتصل التصوف بالفلسفة حينا وبالشيعة الغالية حينا آخر ، وأخذ
منهما مذاهبه التى تفيض بالأسرار والالغاز والرموز والهمس . وكان ابن
عربى والحلاج والجيلانى والسهروردى هم أقطاب هذه المرحلة .

ظهر مذهب « الاتحاد والحلول » وأول من دعا إليه الحلاج الذى نادى
بقوله « أنا الحق » ومن قوله « من غمر فى الطاعة نفسه واشتغل بالأعمال
الصالحه قلبه وصبر على مفارقة اللذات ، وملك نفسه فى منع الشهوات ارتقى
إلى مقام الأقربين ، ثم لايزال يتنزل فى درجة المعاناه حتى تصفو عن البشرية
طبيعته فاذا لم يبق فيه من البشرية نصيب ، حل فيه روح الله فلا يريد شيئا
إلا كان وجميع فعله فعل الله وأمره أمر الله»

وظهر مذهب « وحدة الوجود » الذى دعا إليه ابن عربى وهو يرى أن الوجود كله طبيعة واحدة ، أما الكثرة والتعدد فهى مظاهر ناجمة عن حواس الانسان الظاهرة . وينتهى القول بوحدة الوجود إلى القول بوحدة الأديان ، إذ أنها كلها تدعو إلى الله والتصوف فى هذه المرحلة قد تأثر إلى حد كبير بالفلسفة اليونانية والمذاهب النصرانية . وبذلك أفسد المجتمع وجنح به إلى التواكل فقتل روح المقاومة والمجاهرة بالخصومة للحاكم الظالم .

وانتقلت الصوفية مرة أخرى من عالم النظريات والفلسفات والرموز والاشارات إلى مرحلة الربط والتكايا و « الداراويش » وفى هذه الدور نشأت الطرق الصوفية .

وكانت مصر فى هذه المرحلة أقوى حصون التصوف وأشدها جانبا فقد نشأ فيها الشعرانى والخواص وابن الفارض وكانت فى خلال هذه الفتره تقاسى اضطراب الحكم بين المماليك — فى أواخر دولتهم — وبين العثمانيين .

ثم جاء ابن تيمية ، فحمل على الصوفية حملته الضخمة . وقرر ابن تيمية أن التصوف إسلامى الأصل وأن كل ما دخل عليه من شطحات وأوهام ورموز انما جاء من الخارج . من الفلسفات الفارسية والهندية والنصرانية ومزق ابن تيمية أوهام دعاة الحلول ووحدة الوجود وأسقاط التكليف ، وصب عليهم شواظا من نار واعترف إلى جوار ذلك بفضل الأوائل من الصوفية أمثال الفضيل وابن أدهم والكرخى والجنيد .

ونهج السيد البدوى بالتصوف منهجاً جديداً هو تكوين الكتائب

وجمع الناس وأعدادهم للجهاد فى سبيل الدين ومحاربة الصليبيين . وتعتبر جماعته أقوى جماعة من الجماعات الصوفية التى تكونت بعد قيام هذا النظام .

واتجه التصوف اتجاها جديدا فقد كانت عوامل الظلم والفساد والجهل وتفاوت الطبقات والجماعات من أكبر عوامل الدعوة إلى هذا اللون من الزهد والتحصن بالكهوف والزوايا من الجوع والظلم معا .

وكثرت هذه الزوايا وتعددت وحفلت بمجموعات من الفقراء الذين طوردوا فى الحياة ولم يستطيعوا مقاومة المسغبة والظالم ، دخلوها يتجردون لذكر الله ويعلمون أنفسهم الزهادة والتقشف . وفى هذا الدور ظهر الاحتراف وكثر الأدعياء وبذلك تلوث اسم الصوفية وضاعت المجموعة الصالحة فى غمار هؤلاء الأدعياء .

وباتجاه التصوف إلى الزوايا والخوانق والتكايا ، أخذ صورة جديدة من هجرة الحياة واعتزال المجتمع والقصور عن مواجهة الدنيا واقتحامها . وهو لون من الهرب من الحياة والجبن عن الاندفاع فيها ينكره الاسلام ويحاربه

كانت الحياة فى الزوايا راكدة يتخطفها الكسل العقلى والجسمانى والروحى . وكان الصوفية يعيشون فى الزوايا مع زوجاتهم وأولادهم تجرى عليهم الأرزاق والأعطية وقد وصل عدد الذين يعيشون فيها إلى عدة مئات

ولا شك أن الطرق الصوفية هى الدور العملى الطبيعى للتصوف كنزعة روحية .

وفى هذه المرحلة قال الصوفية بالجبر والاستسلام وإكبار الأولياء والنظر إليهم على أنهم أصحاب كرامات ، وإكبار النبى محمد بوجه خاص والنظر إليه على أنه فوق درجة الانسان . وذهبوا إلى أن الانسان مجبر على جميع أعماله وتغالوا فى فهم معنى التوكل على الله حتى لقد اعتبروا أن من يهتم برزق غدة وعنده قوت يومه قد ارتكب خطيئة تكتب عليه .

وقسموا الأولياء إلى أخيار وأبرار وأوتاد ونقباء وهناك القطب والغوث .

وقال بعضهم أن الأنبياء ثلاثة : مرسل بشريعة لأمة . ونبى يبشر بالله وولى يفنى فى الله ، وكما تقع المعجزة على يد النبى تقع الكرامة على يد الولى . والمعجزة حجة على الكفار ، والكرامة حجة على الأولياء وفى هذا الدور ظهرت المولوية والرفاعية الذين يأكلون الزجاج ويزدردون الأفاعى والبكتاشية والقادرية . وقال بعض أدعياء الصوفية أن من عرف الله سقطت عنه الشرائع واحلت له المحرمات كالزنى والخمر .

* * *

وكانت أول حركات البعث فى محيط التصوف والعودة به إلى الجذور المستمدة من الشريعة ، هى دعوة الغزالى ، والغزالى عملاق يقف فى تاريخ الاسلام والتصوف والفقه جميعا كالمنار السامق الذى يهدى من بعيد بأضوائه المتلألئة المتوهجة .

خلّص الغزالي التصوف من هجمات الفقهاء ، وخلص الفقه والتصوف من هجمات المتكلمين . وجرد للاسلام سيفا ردّ به عدوان الباطنية . وقعّد القواعد وربط التصوف بالشريعة والفقه ، وقال لو رأيت انسانا يمشى على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فهو شيطان . وعلامة السالك إلى الله أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة على توقيفاته إيراداً واصداراً .

ووقف الغزالي من البدع الصوفية موقف الخصومة ، ورفض مذاهبهم الجديدة القائمة على الحلول ووحدة الوجود وعارضها ، وقعّد التصوف على جادة السنة . وبذلك خلص الفقه من جفافه ، والتصوف من شطحاته وأعطى الدين روحا وحياة لا تتعارض مع العقل ولا العاطفة . وبذلك وحد الصفوف وقضى على الخلافات والشحناء التى كادت تؤدى به . وأعلى الغزالي بذلك قدر الصوفية وأعاد ثقة الناس بهم .

ولكن هل مضى التصوف فى طريقه ؟

... لا ، لقد جاء ابن عربي بعد نصف قرن يحمل فلسفة وحدة الوجود ، هذه الفلسفة التى اتهمت طائفة من الصوفية كالحلاج والسهروردى وغيرهما ممن جرى مجراهما .

* * *

وابتدع الصوفيون فنونا من الأدب فلقد كانوا على جانب كبير من الذوق والصفاء الروحى والايمان سجل آيات رائعة فى حب ذات الله وحب

رسول الله . وهم الذين أنشأوا فن « المناجاة » وتركوا فيه صوراً رائعة من أساليب التوجه إلى الله وبث شكاتهم وآلامهم . ووصل كثير من الصوفية إلى مركز القيادة فى الأدب والبيان .

وليس من شك فى أن المدائح النبوية والصلوات التى كتبها ابن عربى والنابلسى وابن بشيش والشاذلى والبوصيرى غاية فى الروعة والجمال . أضف إلى ذلك أشواق بن الفارض ومنظومات حسن رضوان وحكم بن عطاء الله السكندرى ونفثات الغزالى . ولم يكن أدباء الصوفية من المحترفين ولم يتاجروا بأدبهم ولم يكونوا – فى الأغلب – صنائع حاكم أو أمير أو سلطان .

ودراسة كتب الصوفية وآثارهم تدحض النظرية القائلة بأنهم قوم اعتزلوا الدنيا وقبعوا فى كهوفهم ، ومغاراتهم ، لا يتصلون بالدنيا ولا يعرفون عنها شيئا .

وفى كتاب الأحياء فصول عده تدل على خبرة عريضة بالمجتمع ، وهى خبرة قلما تتاح للكثيرين . فيها عمق فى الفهم . وتغلغل فى أنحاء الحياة .

وكتابات الشعرانى عن المجتمع الاسلامى فى كتبه لطائف المنن ولواقح الأنوار والبحر المورود ، غاية فى السداد والقوة والعمق فقد فصل رزائل المجتمع واخطاء الناس .

وقسم الغزالى الناس إلى أقسام ثلاثة : العامة والخاصة وخاصة الخاصة وجعل الفقه عمل الخاصة وارتقى بالتصوف إلى الخاصة وخاصة الخاصة . وهو يرسم صورة لذلك فى الصوم مثلا « الصوم ثلاث درجات ، صوم العموم ،

وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة · وصوم الخصوص : وهو كف السمع والبصر واللسان والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . وصوم خصوص الخصوص : وهو صوم القلب عن الهمم الدنية والأمور الدنيوية وكفه عما سوى الله بالكلية ، ويحصل الصيام بالفكر عما سوى الله عز وجل واليوم الآخر »

وهكذا يفلسف الغزالى الفقه ، ويدمجه فى التصوف فيجعله مرتبة أرقى من الايمان العام أو ايمان العوام ، ونصح الغزالى الصوفية باعتزال الأمراء والحكام والانصراف عن موائدهم حتى يكون عندهم الشجاعة لأداء رسالتهم ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ·

وتمضى فى دراسة الأدب العربى فى مختلف عصوره فلا ترى فيه غير الصوفية ، من وصلوا ماضى الاسلام بحاضره ، وسجلوا للاسلام أمجاده وأخلاقه وآدابه فى الوقت الذى غفل فيه الأدباء والشعراء عن هذا المعنى وانزلقوا إلى المديح والهجاء ووراء دوافع المجاملة والمخاصمة على أسباب من المطامع والأهواء .

وبقى أقطاب الأدب الصوفى بمعزل عن هذا التيار ، وهذا الأغراء· فلم ينزلقوا إليه ولم يتخطفهم البريق ، فقد كانوا فى مأمن بقلوبهم النقية .

وهم أصحاب نظرية الفن للمجتمع ، فلم يقفوا بالأدب عند الألفاظ البراقة والخيالات الفاتنة · والأوهام والعواطف ، وانما استهدفوا به الخير والجمال والحرية ، فجعلوه ضياء للعقول والقلوب .

وما يزال أدب الغزالى مناراً يهدى فى ميادين التصوف والفقه والاجتماع وأبرز التصوف « رجالا » عرفوا بالجرأة على الأمراء والخلفاء والحكام

الظالمين الذين عزلوا أنفسهم عن شعوبهم يجبهونهم بكلمة الحق ، يقولونها سافرة جريئة . لايبالون أثرها ماذا يكون . أنهم يرون قتلهم فى سبيل الحق شهادة ، وسجنهم خلوة . ونفيهم سياحه ؛ وشعيب والفضيل وعطاء وأبو حازم وطاووس وابن السماك وعماره بن حمزة ، كل هؤلاء زهاد وصوفية وقفوا موقف الجرأة فى تذكير الخلفاء بعيوبهم واخطاءهم ، التى لم يكن يجرؤ على تذكيرهم بها أحد . وكان الخلفاء من سليمان إلى المنصور إلى الرشيد يسمعون نصح هؤلاء بقلوب واجفة ... وكان هؤلاء الصوفية يرفضون مايقدم لهم من أعطية أو هبات .

وقد بدأ التصوف روحا عالية سامية ، وانتهى إلينا « صورة » شوهاء ومسوحا ومظاهر .

دور الشيعة فى الحياة الفكرية الإسلامية

الشيعة هم آل على وأتباعه ، ظهروا للمرة الأولى فى معركة الجمل والنهروان .

وعاشوا حياتهم فى صراع طويل ممتد ، انتظم العهدين الأموى والعباسى ، حتى جاء الفاطميون فأقاموا دولتهم فى المغرب ثم نقلوها إلى مصر .

وإن كان أمر الفاطميين ما زال مشكوكا فى صلته بأبناء فاطمة وبالعلويين أنفسهم . بعد أن صح أن هناك رابطة بينهم وبين القرامطة . وبعد ما أثير من شكوك حول نسب عبد الله بن المهدى إذ كان مع القرامطة ثم تركهم إلى بلاد المغرب .

ويرى الشيعة أن الأئمة معصومون وإن « على » له ـ بحكم أنه أول من من اعتنق الإسلام من الرجال ، مكان مرموق ، وإذا كان محمد هو خاتم الأنبياء فإن علياً هو خاتم الأوصياء .

ويقولون بتركيز الخلافة فى بيت النبى . وإن آل محمد هم أولى الناس بأن يخلفوه . وأولى أهل البيت على والعباس . وعلى أولى من العباس .

ولهم نصوص ينقلونها ويؤلفونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها أهل السنة . ومن هذه النصوص نظرية الوصية وتلقيب على بالوصى . ويرون أن النبى أوصى بالخلافة لعلى من بعده .

وقد دعا عبد الله بن سبا إلى تأليه على ونقل تعاليم الوصاية والرجعة من اليهودية إلى الإسلام وكان نواة أولئك الذين بالغوا فى تقدير على ووصلوا به إلى مرتبة الألوهية . وكانت لهم آراء فى نبوته ، وفى مركزه بين أبى بكر وعمر . ولقد تشيع الناس لعلى فى أواخر أيام عثمان ، أملا فى الخلاص من الاضطراب الاجتماعى الذى أخذ يتسع ويستفحل ، ويأخذ لوناً قاتماً ، ولكن « على » سرعان ما اصطدم بالصراع الداخلى فاندفع فيه حتى قتل بيد أحد الخوارج .

وتُعَد معركة كربلاء ومقتل الحسين من القمم العالية فى الدعوة الشيعية بحيث لا يمكن تجاهلها فى تحديد هذا الدور . إذ كان لها أثرها أيضاً فى توحيد صفوف الشيعة وتوجيههم إلى الانتقام للحسين وقيام طائفة « التوابين » الذين ندموا على ما فرط منهم فى حق الحسين وعلى رأسهم المختار بن عبيد التابع لإمامه محمد بن الحنفية وقتلهم عبيد الله ابن زياد . وكان شعارهم « ياثارات الحسين » .

وتحالفت هذه الفئة على الأخذ بثأر الحسين على أوسع نطاق وقدمت أموالها وأرواحها فى سبيل تحقيق هذه الغاية ويرجع سقوط الدولة الأموية — فى تقدير كثير من المؤرخين — إلى مقتل الحسين الذى جمّع خصوم الدولة واستطاع أن يعمل على تقويضها .

لما مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مرض الموت ، لقى العباس علياً . وقال له : أن رسول الله سيموت فى مرضه هذا وإنى أعرف الموت

فى وجوه بنى هاشم ، فتعال نحدثه فى الأمر — يعنى الخلافة — فقال له على : والله لا نسألها ، لئن طلبناها فلم نجب إليها ، منعنا إياها العرب بعد ذلك أبداً .

فلما لحق رسول الله بالرفيق الأعلى ، أقبل أبو سفيان إلى على ، وقال له : أمدد يدك أبايعك ، فما والله أحد أحق بها منك ، فرده على ، وقد خشى الفتنة .

ويقول الشيعة أن النبى عهد إلى على فى حديث أشبه بالوصية ، ذلك الذى يطلق عليه « حديث غدير خم » وخم موقع يقع فى مكان قريب من الجحفة ، يقولون أن الرسول وهو عائد من حجة الوداع ، نزل إلى هذا المكان وقام خطيباً ، وأخذ بيد على بن أبى طالب فقال « ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، قالوا بلى يا رسول الله ، قال من كنت مولاه فعلى مولاه » وقد أورده الإمام أحمد بن حنبل فى الجزء الأول من مسنده .

وقد رسم الشيعة نسبهم على أن رأس الشيعة هو على ثم الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية .

أما فرع الحسن فكان أبرز رجاله محمد النفس الزكية . أما فرع الحسين فقد تتابعت طبقاته وأئمته : على زين العابدين ، أبو جعفر محمد الباقر ، أبو عبد الله جعفر الصادق ، موسى الكاظم ، على الرضا ، أبو جعفر الجواد ، على الهادى ، أبو محمد الحسن العسكرى ، محمد المهدى المنتظر ؛ وهؤلاء هم الأثنى عشر إماماً ، الذين عرفوا بالشهرة وذيوع الصيت .

ويقال أن محمد المهدى المنتظر هو الذى اختفى نحو سنة ٢٦٠ هـ . وتقول الشيعة بعودته وبعضهم ينتظر جعفر الصادق أو محمد بن الحنفية ويقول أنه مقيم فى جبل رضوى لم يمت وأهم فرق الشيعة الزيدية والامامية والاثنا عشرية والاسماعيلية .

كان مقتل على توطيدا الملك معاوية . ومقتل الحسين أول معول فى كيان الدولة الأموية . فقد أدى إلى خروج المختار الثقفى مطالبا بدم الحسين وقتل قتلة الحسين ، ثم استعمل الأمويون الحجاج على العراق ، فنكل بالشيعة .

وقتل سليمان بن عبد الملك « أبا هاشم عبد الله بن محمد الحنفية » رأس الحركة السرية التى قوضت ملك بنى أمية وأسلمت الخلافة إلى الرضا من آل محمد . وظل محمد بن على بن عبد الله بن عباس الذى عهد له أبا هاشم يعمل ثم أوصى لابنه ابراهيم الامام الذى استعمل أبا مسلم ، وقد قتل مروان ابن محمد ، ابراهيم الامام ، فصار الأمر إلى أبى العباس والسفاح أول الخلفاء العباسيين .

وقتل زياد بن أبيه ، وعبد الله ابن زياد الألوف من شيعة الكوفة والبصرة ، وفى مقدمة من قتل أفذاذ من رجال الشيعة أمثال حجر بن عدى ، وهانى بن عروه ، ومسلم بن عقيل .

وامتد عسف الأمويين بالشيعة فكان «على» يُسبُّ على المنابر ، ولايجرؤ أحد على التصريح بأنه شيعى ولا أن يتسمى بعلى أو الحسن أو الحسين .

وقسا العباسيون على العلويين — شركائهم فى الجهاد القريب —

قسوة كانت تزرى بقسوة الأمويين وكانوا أقدر على حربهم لأنهم كانوا أعرف بهم وبأسرارهم . وظل الدعاة العلويون يظهرون ويقاومون سلطان بنى العباس فيقتلون ويسجن أنصارهم .

والمعروف أن حركة الرضا من آل محمد كانت حركة علوية فى بدئها وخطواتها الأولى . بل أنها بعد أن انتقلت قيادتها إلى العباسيين ، ظل على رأسها أبو مسلم الخراسانى . وكان من أقطابها أبو سلمة الخلال وهو من دعاة العلويين ، وقد وجه رسولا إلى ثلاثة من أقطاب شيعة العلويين ، بكتاب الدعوة ورسم الخطة وطلب إليه أن يذهب إلى أبو جعفر الصادق ورسم له الخطة ، وقال له أن لم يجبه قصد إلى عبد الله المحض ، فان لم يجبه قصد إلى عمر الأشرف بن على زين العابدين . وقد وجد الرسول من الثلاثة أعراضا ولم يحفلوا بالأمر ، وكان أن أسرع أبى مسلم فانفذ الأمر إلى أبى العباس السفاح . وسلم عليه بالخلافة ، وقتل أبو سلمه الخلال .

وظل أبو مسلم فى صميم نفسه علويا حتى قتل ، واحتضن الفرس المذهب الشيعى وعملوا على نصرته . وكانت محاولات البرامكة تهدف إلى نقل الخلافة إلى العلويين . وأثر عن جعفر البرمكى أنه قال فى مجلس من مجالسه أنه ليس البطل من ينقل الخلافة ويقتل مائة ألف — يعنى أبو مسلم — ولكن البطل من ينقلها دون أن يريق قطرة دم واحدة . وهى من العبارات التى أحصاها عليه هارون الرشيد وكانت عاملا من عوامل القضاء على البرامكة على هذه الصورة المروعة .

ومما يعزى إلى جعفر أنه أطلق زعيم العلويين الذى عهد إليه الرشيد فى التحفظ عليه دون إذن منه .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل أنهم أعانوا المأمون على الأمين . وهدفوا إلى قتل الأمين ، وكانوا يستطيعون افتداءه لو أرادوا ، لولا أن المأمون كانت أمه فارسية ، وكانوا يريدون التعجيل بنقل الخلافة إليه — وقد ظل المأمون فترة طويلة مقيما فى خراسان ، حتى تعقدت الأمور فى « بغداد » فرجع إليها وقد استطاعت حاشيته الفارسية العلوية — وعلى رأسها الفضل بن سهل — أن تحمله على أن يعهد بولاية العهد إلى « على الرضا » العلوى .

وعاش العلويون لا ينسون حقهم فى الخلافة ، ولا يفتأون يحركون الجماهير ، بذكرى كربلاء ومقتل الحسين . وكلما سنحت الفرصة بالجهر جهروا ، فاذا اشتدت المطاردة لجأوا إلى التقيه ، وطووا صدورهم على عقدائهم حتى يطلع لهم فجر جديد .

وفى عهد المنصور تطلع إلى الخلافة محمد بن عبـــد الله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب « النفس الزكية » وأعلن البيعة فى الحجاز وكان جمهرة أقطاب الهاشميين من العلويين والعباسيين قد قطعوا له عهداً فى آخر أيام بنى أمية ، وكان فى مقدمة ساداتهم وعظمائهم . ومن بين هؤلاء الذين بايعوه عبد الله بن الحسن بن الحسن . والسفاح والمنصور ، وهما خليفتا العباسيين الأولين . وقد عرف المنصور أن محمداً لا يبايع لهم فخشيه وأسر فى نفسه محاولة للتخلص منه فطلب إلى عامل المدينة أن يأتى به ورصـد له

العيون فى كل مكان . وكان أهل المدينة على هوى الشيعة وآل على . واستنفد المنصور وسائل البحث عنه دون طائل .

وأخيرا أعلن محمد إمامته على مكة والمدينة ومال الناس إليه ، وأصابه ما أصاب على والحسين ، فقد تفرق الناس عنه ، عندما بدأت محنته ، بعد أن اضطروه للخروج قبل أن يتهيأ له الظرف الصالح ، وعضده الامام مالك حين أفتى له بيمين المكره وبيعة المكره .

وظهر أخوه ابراهيم بن عبد الله فى البصرة واستولى على دار الأمارة وهزم قوات المنصور وعاونه الامام أبو حنيفة وذوو الرأى من فقهاء ومعتزلة وزيديه .

وخشى المنصور أن يستفحل أمر محمد فى المدينة والبصرة ، فكتب إليه يؤمنه إذا تاب فأرسل إليه محمد خطابا بخطابه يؤمنه فيه أيضا إذا هو تاب ورجع .

وبسط محمد النفس الزكية فى خطابه قضية أحقيته وأحقيه أولاد على للخلافة بسطا بليغا غاية فى القوة واللباقة ، فكتب إليه المنصور يكيل له بالصاع كيلين ، ويسوق إليه كلاما قاسيا عنيفا . وكان هذا يعنى الحرب والقتال . فأرسل عيسى بن موسى إلى المدينة ، فى جيش لجب ، وحمل إلى أهل المدينة الوعود والأمانى ، فتفرق عن محمد أغلب أنصاره . وكان أن هزم محمد وجيشه ، وقتل واجتزت رأسه . فلما علم ابراهيم فى البصرة ، بمصير أخاه ، ضعف عن مواصلة العمل ، إذ أرسل المنصور إليه عيسى بن موسى

بعد عودته من المدينة ، فكان مصيره نفس مصير محمد هزيمة وقتلا .

وظهر الشيعة مرة أخرى فى عهد الهادى ، خرج الحسين بن على ابن على بن الحسن بن الحسن ، ودعا لنفسه بالمدينة عام ١٦٩ وكان الحسين سيد الشيعة وأمامها . وقد بويع له ، والتقى بجيش العباسين فى « فخ » وفى هذه المعركة قتل الحسين ، وقتل معه جمع كبير من أهل بيته .

وقد بلغ من قسوة المعركة أن عرفت بأنها أضخم من معركة كربلاء .

ولكن رجلين من أقطاب الشيعة هربا من معركة « فخ » ، أتم الفتح بهما الشيعة . وقامت بهما الدولة التى بات يترقبها العلويون أعواما وأعواما . هما يحيى بن عبد الله صاحب الديلم ، وادريس صاحب دولة الأدارسه التى حكمت المغرب ردحا من الزمان .

وهكذا بعد حوالى العشرين عاما بعد المائة من الجهاد الدموى المرير ، استطاع الشيعة أن يقيموا دولة تحمى مذهبهم وتحتضن أنصارهم وتقاوم الدولة العباسية وتنتقص من أطرافها .

واستطاع الرشيد أن يكتب ليحى أمانا ، ثم يحبسه وينقض أمانه ويقتله ، وهكذا قضى على الدولة الشيعية الأولى ، فى مهدها ... وفر ادريس إلى مصر سنة ١٧٢ ، وذهب إلى المغرب والتف حوله البربر وبايعوه ، وتقصاه الرشيد فدس له السم ، ولكن أنصاره تلقفوا طفلة الرضيع الذى لم يكن قد ولد بعد ، فأطلقوا عليه اسم « ادريس » وبايعوه بالخلافة ، ويعرفه المؤرخون بأنه مؤسس الدولة الادريسية فى المغرب .

ولم ير أقسى من الرشيد في مقاومة العلويين وحربهم والتنكيل بهم بعد فتنة محمد النفس الزكية . ثم خرج محمد الديباج بن جعفر الصادق في عهد المأمون وبويع بالخلافة . وقد ظفر به المأمون بعد هزيمته وعفا عنه . وخرج على المأمون القاسم بن ابراهيم الذي اختفى في مصر ، وبث دعاته في انحاء الامبراطورية الاسلامية ، فظفر ببيعة أغلب أقطارها ثم هزمه المعتصم.

وفي عهد المأمون استطاع أصحابه والمقربون إليه من الفرس ، أن يحملوه على مبايعة على الرضا فبايعه ، وعلى الرضا هو ابن موسى الكاظم الامام الثامن عند الامامية الأثنا عشرية . وكان المأمون يقيم في خراسان .

ويقول بعض المؤرخين أنه ولاه الخلافة بعده على ثقة من خلقه وايمانه وعدله وكفايته ولا يبعد أن يكون أراد أن يجمع إليه بذلك قلوب أهل خراسان من فارس . وقد أثر عنه أنه لبس الخضرة شعار العلويين .

وقد بلغ من صدق نيته أبعد الحدود ، فضرب الدراهم باسمه وزوجه ابنته ودعى له على المنابر مع الخليفة وعضد الفضل بن سهل فكرة تحويل الخلافة إلى آل على ، وقد كان لاتجاه المأمون أبعد الأثر في نفوس أهله العباسيين ، وقد امتنع أهل بغداد عن البيعة للرضا . وفي هذا المقام أنشد دعبل قصيدته المشهورة « مدارس آيات خلت من تلاوة » .

غير أن الأمر لم يتم ، فقد كرهت حاشية المأمون ، والكثير من خاصة المقربين إليه هذا الاتجاه . وحجبت عن المأمون أسباب التمرد والاضطراب التي أحدثها هذا الأمر في بغداد ، وفكر العباسيون في خلعه

وتولية ابراهيم بن المهدى ، وكاد الناس أن يفتنوا فى «على الرضا» حين أقبل يصلى العيد بالناس بدلا من المأمون . ويبدو أن المأمون نفسه ضاق بالتفاف الخراسانيين حوله ، واقبالهم عليه ، حتى أنه أسرع فصلى بالناس فى ذلك اليوم بالرغم من أنه كان مريضا .

ويقال أن على الرضا هو الذى كشف للمأمون اضطراب الأمور فى بغداد من جراء البيعة له بعد أن أخفاها عنه وزيره الفضل بن سهل . وقد انتهى الأمر نهايته المحتومة فى يوم واحد ، قتل الفضل ، وقتل على الرضا . ونبذ المأمون لباس العلويين ورجع إلى لباس العباسيين وخلف خراسان عائداً إلى بغداد .

وهكذا يبدو كأنما اتفق الأمويون والعباسيون على استئصال العلويين والتخلص منهم ومع ذلك عاش الشيعة وقاوموا الزمن ، وقدموا الضحايا فى ميدان الاستشهاد والتمسك بالحق ، وجاهدوا فى سبيل فكرتهم ، وظلوا الشوكة الدامية فى جنب الأمويين والعباسيين على السواء وأتيح لهم — أخيرا — أن يقيموا دولة امتد رواقها حتى شمل الشرق والغرب . وعاش الشيعة بعد ذلك وما زالوا ، يمثلون الغالبية العظمى فى العراق وايران واليمن ويرجحون الكفة فى السياسية والاجتماع والرأى والأدب والفقه فى تلك الأقطار . ويمثلون بحق الجماعة التى أحبت آل البيت وجاهدت فى سبيل هذا الحب ما وسعها الجهاد .

قامت الدولة الأولى للشيعة بعد جهادها العنيف المرير سنة ١٧٢ هـ بعد

وصول إدريس بن عبدالله من مذبحة « فخ » إلى المغرب ، قيام إسحق بن محمد أمير البربر بإجازته وجمع الناس حول دعوته ، فقد بايعته كبرى قبائل المغرب زناته ومكناسه وزواعه ، وبذلك وضع يده على المنطقة الممتدة من غرب القيروان إلى المحيط الأطلسى .

وأنفذ الرشيد إلى إدريس من دس له السم ، ولكن البربر ظلوا على ولائهم الشيعى ، فولوا إبنه عندما بلغ الحادية عشرة ، وظل أمر الدولة الشيعية الأولى قائما إلى أن ظهر الفاطميون فى أفريقية ، وامتد نفوذهم إلى المغرب الأقصى فى عهد « عبيد الله ابن المهدى » فطما على ملكهم عباب « العبيديين » على حد تعبير إبن خلدون ودارت بينهم معارك انتهت بغلبة الفاطميين وهم فرع من الشجرة الشيعية العلوية .

وتمثل الدولة الفاطمية جهد الشيعة المتصل على الأيام والاعوام ، فقد ظل الشيعة فى خلال عهد العباسيين يكافحون فلما ضيق عليهم النطاق هربوا إلى أفريقية — لبعدها عن مقر الخلافة — ولعلهم إقتدوا فى ذلك بإدريس ، بعد أن ظفر بتكوين دولة فى المغرب الأقصى .

وفى المغرب وجد الشيعة قلوبا محبة لآل البيت ، متأهبة لاستقبال الدعوة ، كارهة ناقمة على العباسيين وولائهم ، وكان الأمراء هناك فى غاية الضعف مما أدى إلى إنتصارهم .

واتسمت دعوة الشيعة بفكرة «الإمام المنتظر» الذى كانوا يترقبون خروجه والذى يملأ الدنيا عدلا بعد ان ملأت جوراً . وأظهر من حمل علم الدعوة — إذ ذاك — أبى عبد الله الشيعى الذى يشبه إلى حد كبير أبو مسلم

الخراسانى فى آثاره وفى خاتمته ، فهو الذى أقام الدولة الفاطمية ، وجاهد لها ما وسمه الجهاد ، ثم هو أيضا الذى قتل بنفس الاتهامات التى أخذ بها أبو مسلم .

تم الأمر لعبدالله بن المهدى وأخرج من سجنه سنة ٢٩٦هـ ، وبويع بالخلافة وقسم أعمال دولته على رؤساء كتامه الذين عاونوه فى إنشاء الدولة التى ظلت تتسع أفاقها حتى استولت على مصر وجعلتها حاضرة الدولة ، ثم امتدت إلى الشام والحجاز . وقاومت الخلافة الفاطمية فى المغرب الخلافة العباسية فى المشرق وكان من أظهر رجالها المعز لدين الله .

وانتقلت مصر باستيلاء الفاطميين عليها إلى المذهب الشيعى وبنى الفاطميون بها القاهرة والأزهر ودار الحكمة .

وعقد الفاطميون العقيدة الأسلامية البسيطة وأضفوا عليها فلسفات مبتدعة ووضعوا نظاما لدواتهم وجعلوا له تسع مراتب ، وقالوا إن الأيمان يبنى على العقل لا النقل . وأن التكاليف فرضت على العامة ، وميز الخاصة بالأسرار الخفية .

واقد عانى الفاطميون جهداً كبيرا فى كسب مصر إلى صفوف (دعوتهم) ونقلها من مذهبها السنى إلى مذهب الشيعة . وادخلوا على الآذان « حى على خير العمل » وبقى الصراع فى مصر خفيا بعد ان كتب الفاطميون فى كل مكان عبارتهم المعروفة «خير الناس بعد رسول الله صلى عليه وسلم على بن أبى طالب »

وظلت هذه الدعوة قائمة حتى قوض أركانها صلاح الدين الأيوبى . وبانتهاء

الدولة الفاطمية ، وقفت حركة الشيعة السياسية وتجمدت من ناحية الحكم ثم تبلورت فى صورة مذهبيه خالصة بعد ان حققت أغراضها إلى أبعد حد ، فأصبحت مذهبا دينيا له مقوماته يعتنقه عدد ضخم من أهل العراق وإيران والهند واليمن منقسم إلى طوائف من الاثنا عشرية والزيدية والأسماعيلية ·

ولماقويت شوكت الوهابيين اكتسحوا العراق وحاولوا هدم المزارات الشيعية .

* * *

أيد الشيعة دعواهم بأدب رائع ، فقد عرف الهاشميون بالبلاغة وسحر البيان ، وقد عرف هذا الأدب بقوة العارضة · والمطالبة بالحق الذى اعتقده دعاتهم فى الخلافة باعتبارهم عترة النبي واهله وأحق بالناس بالأمر .

ثم تطور هذا الأدب لحمل صورة مظلمة سوداء من الألم والمرارة والرثاء على أثر أحداث القتل والسلب والسجن والتشريد التى أمتحن بها الشيعة خلال عهدى الأمويين والعباسين جميعا .

وكان مقتــــل الحسين فى كربلاء ، ومقتل الشيعه فى فخ ، أبرز هذه الاحداث وأكبرها أثراً فى قلوب الشعراء والـكتاب .

وشعر الـكميت والحميرى ودعبل الخزاعى ، آيات بعد آيات من الأدب الحزين الخالد ، أدب العاطفه المشبوبة ، المؤمنة ، الصادقة العهد ، الواثقة بحقها فى الخلافة ، الشاعرة بالظلم والاضطهاد · وقدقام مذهب الشيعة — فى صميمه — على أسس من الفلسفه كانت بعيدة الأثر فى إقبال طوائف منوعة من الأقطار الاسلامية عليه .

وقد أيدوا مذهبهم بقاعدة «عصمة الأئمة» وقالوا بأن لكل نبي وصيا ، وإن خاتم الانبياء محمد وخاتم الاوصياء علي ، وأعتبروا الأمامة ركنا من أركان الأيمان . وقالوا بالمهدى المنتظر الذى يعود فيملأ الأرض نوراً . وكفَّروا من ناوأوا عليا ، أو نازعوه الحق فى الأمامة ، وقالوا بالتقيه .

وليس من شك أن هذه الاسس وضعت على أساس تأبيد مبدأ مضطهد ، إضطهادا عاصفا إستطال وامتد ، وأخذ صوراً متعددة من المقاومة والتنكيل وغلب طابع الحزن والألم والأنتقام على أدب الشيعة وتفكيرها .

وقد أخذ المذهب صورته الواضحة المتألقة بعد مقتل الحسين . وانتقل من دور الكلام إلى دور العمل . وتجلد الشيعة فى سبيل مبدأهم ، وحملوا علم المقاومة ، ودخلوا فى معارك دموية عنيفة ، وسلط الخلفاء عليهم شواظ النيران ، ومع ذلك فقد ثبتوا . .

واقد أبرزت هذه الدعوة خلال عصورها الطويلة وكفاحها المرير ، رجالا أبطالاً مؤمنين غاية الأيمان ، رخص عليهم الفداء فقاوموا الظلم فى سبيل حقهم ، وأظهرت شعراء وكتاب تتحرق أقلامهم وسطورهم بالحق والألم . وكيفما تقلب تاريخ الشيعة ترى صوراً رائعة دافقة بالحماسة فى سبيل العقيدة ، وأشباحا مخلصة ، لم تعد ترى الحياة إلا من خلال فكرتها التى تضحى لأجلها وتفتديها . .

مزية الإســـلام أنه فسيح الجنبات ، وأنه قابل للمذاهب المختلفة فى نطاقه ، .. هذا فضلا عن مذاهب أخرى سميت باسمه ولم تــكن منه .

لقد ذابت فى الإســلام أمم وعناصر وشعوب ، دخلت عتبته ومعها مخلفاتها وماضيها ودياناتها وثقافاتها وتحولت مع الزمن من حال إلى حال ، وكانت الغلبة أول الأمر للعرب ، إبان الدولة الأموية ، ولــكن سرعان ماغلبت النزعة الإسلامية على اللون العربى الخالص ، باسم السلطان الفارسى الذى كان ممثلا فى أبى مسلم والذى سلم مقاليد الحــكم إلى العباسيين ، فقد كان التعصب العربى قد أثار ثائرة الطوائف غير العربية وجعلها تسعى إلى محاولة تسترد بها بعض حقوقها .

قام العلويون الشيعة من ناحية يدعون إلى ثأر الحسين ويطالبون بالخلافة لمحمد بن الحنفية . وقام الخوارج الذين كانوا يرون الخلافة فيمن تجتمع عليه الأمة ولو كان عبداً حبشياً . وقام المعتزلة . وعكف فريق على الزهد والتصوف .

وجاء هذا كله فى أعقاب توقف حركة الفتح ، التى استوعبت الجانب الضخم من الشباب والتى دفعت بأكبر مجموعة من أبناء الأمة إلى خارج الوطن الضيق ، فمضت غازية شرقاً إلى حدود الصين وغرباً إلى البرانس وتولوز وشمالا إلى أسوار القسطنطينية ، ولــكن سرعان ما حال الخــلاف

الداخلى دون استمرار الفتح . وعادت هذه المجموعة الضخمة لتواجه تنازعاً وصراعاً فكرياً له صبغة سياسية واضحة ، ودخلت إلى الإسلام نتيجة الفتح طوائف أخرى رأت فى حمى الإسلام ما يدفع عنها وصمة أهل الذمة وكانت حاجة المجتمع دائما أقوى من عقيدة الإسلام العميقة . وإن بقيت فى أعماق هذه الطائفة عقائدها وأفكارها مما أدى إلى تجمع بعضها تحت لواء المتآمرين على الإسلام الكائدين له .

كان اسم أهل البيت والشيعة والعلويين ستاراً لبعض الدعوات الهدامة ، كالزنج والقرامطة وغيرها ، ومضت الدولة سواء الأموية أو العباسية من بعد تقاوم الشيعة والخوارج والعلويين .

واندمجت طوائف تحت لواء نداء غامض هو « الرضا من آل محمد » وكان نتيجة ذلك أن سلمت الخلافة للدولة العباسية ، ولكن سرعان ما جاهدت هذه الطوائف مرة أخرى ظلم العباسيين وجورهم و انفرادهم بالخلافة دون العلويين الذين بقى حقهم مضيعاً . ومازالت هذه الطوائف تتجمع لاسترداد هذا الحق ومعها الألوف من المؤمنين بصدق دعواهم .

وفى معارك فاصلة فى المدينة مع محمد النفس الزكية وفى غديرقم ومع يحيى فى الديلم وإدريس فى المغرب ومع محمد بن جعفر وغيره جاهد العلويون وقتلوا ونكل بهم .

وتألق مذهب المعتزلة فى غضون القرن الثالث الهجرى . وظل يقوى حتى أصبح المذهب الرسمى للدولة ، ثم أخذ الخلفاء به الناس . وليس من

شك أن مذهب المعتزلة إيجابى قوى الحجة ، جاء فى إبانه وأفاد فى الهدف الذى اتجه إليه ، إذ قاوم النزعات الفلسفية التى دخلت إلى الإسلام والتى حمل لواءها فريق من الزنادقة والملاحدة والروافض ، كمحاولة جماعية للغض من قدر الإسلام بإذاعة هذه النزعات والآراء .

وقد استطاع المعتزلة أن ينزلوا إلى الميدان بنفس الأسلحة ، ففلسفوا العقيدة الإسلامية وأعطوها صيغة « الكلام » وأقاموا منهجهم على أساس قواعد المنطق التى تنتظم فى أسلوب من المقدمات والنتائج .

غير أن الصراع لم يلبث أن قام بين المعتزلة والسنة . . . فقد أخذ المأمون الناس بفكرة من أفكار المعتزلة ، هى « خلق القرآن » وحمل الناس عليها ، ولقى أهل السنة فى ذلك الصراع عنتاً كبيراً ، فقد اضطر الكثيرون إلى قبول هذا القول تحت ضغط سطوة الخلفاء . ولم يعارض هذه الفكرة إلا عالم واحد لم يحفل بالتعذيب هو أحمد بن حنبل الذى أوذى وعذب نتيجة إصراره على رأيه فى معارضة القول بخلق القرآن .

ومضى الخلفاء بعد المأمون يحتضنون الاعتزال ويأخذون الناس بخلق القرآن . ومضى ابن حنبل مصراً على رأيه ، يحتمل كل تعذيب فى سبيل رأيه ، حتى تحول الخليفة المتوكل عن تأييد المعتزلة وانتهت محنة خلق القرآن وتغير اتجاه الريح فأيد السنة ورفع احمد بن حنبل وأنصاره رؤوسهم . وحمل الخليفة المتوكل على المعتزلة فأصبحوا موضع الاضطهاد وتفككوا وزال سلطانهم وكرههم الناس وظل سلطان أهل السنة

قائماً أكثر من ألف سنة بعد ذلك . أما الحنابلة فقد استفحل سلطانهم وصاروا يقتحمون دور القواد والعوام فان وجدوا نبيذا أراقوه . وإن وجدوا مغنية ضربوها . وكسروا آلة الغناء فارهبوا بغداد .

فى هذا الجو ظهر أبو الحسن الأشعرى (٢٦٠ — ٣٢٤) ه الذى كان فى اول أمره معتزليا ثم خرج على أصحابه وناقضهم وحمل لواء فكرة الإيمان عن طريق القلب معارضاً المعتزلة فى صميم عقيدتهم وروح مذهبهم . وهو أول من نقد مذهب السنة وحدد حدوده . ومن ثم رجحت كفة أهل السنة على أهل الاعتزال .

وجاء الوزير « نظام الملك » فأيد مذهب السنة فأصبح مذهب الدوله . وبنى المدرسة النظامية فى بغداد لدراسة هذا المذهب وإذاعته فى الناس .

ومن هذه اللحظة توقفت الدراسات المعقدة التى بدأها المعتزلة وكف الناس عن الخوض فى ذات الله وصفاته . وجاء الغزالى (٤٥٠ — ٥٠٥) فأسبغ على مذهب السنة من عبقريته وفقهه وثقافته ما وضعه فى الطابع النهائى الذى مازال عليه حتى اليوم . والغزالى كالأشعرى . كان متكلما قبل أن يتجه اتجاهه الأخير . غير انه يمتاز بادماج التصوف فى الفقه على إنهما جماع السنة .

وعارض الغزالى الاعتزال معارضة جريئة ، كما عارض الفلسفة وحسم المواقف بالنسبه للصراع بين التصوف والفقه والفلسفة وصفى جميع

الخلافات المملقة التي كانت تضطرت بين هـذه الطوائف . محاولا أن يوحد صفوف المسلمين من مختلف المذاهب تحت لواء الإسلام الخالص لمواجهة خصوم الإسلام .

واحتضنت مصر مذهب الأشعرى بعد أن قوض صلاح الدين دعائم الدولة الفاطمية وقضى على المذهب الفاطمى وظلت مصر تحمل لواءه طوال أيام الأيوبيون والمماليك . بل أن الأمر قـد بلغ بصلاح الدين حفاظا على مذهب السنة أن أمر بقتل السهروردى .

وتألق نجم « ابن تيمية » فى سنة ٧٠٠ هجرية فى دمشق ، عندما دعا الناس إلى العودة إلى السنة الصحيحة وإلى ما كان عليه السلف الصالح وحمـــل على المذاهب القائمة جميعها ومنها الأشعرية والرافضة والصوفية .

* * *

قامت الدولة العباسية فعلا بقوة الفرس وتأييدهم وكيـدهم وكانوا أقوى فصائل المسلمين التى أنـكرت على الأمويين مغالاتهم فى التعصب للعـــرب وكان على رأس الحركة التى أسقطت الأمويين فارسى هو أبو مسلم الخراسانى .

واتسع نفوذ الفرس فى صورة متألقة ، هى البرامكة فى عهد الرشـيد وتبعه اتساع نفوذ جيشهم فلما قضى عليهم الرشيد ، جاء المأمون — وكانت أمه فارسية — فاحتضن الفارسيه ردحاً من الزمن وكانت نكبة البرامكة نصراً للعرب على الفرس . وكانت بيعة الإمام على الرضا نتيجة لغلبة

العرب ورجحان كفتهم على الفرس فى بلاط المأمون .

وقد ظل الفرس يسيطرون على مركز الخلافة فى بغداد حتى أيام المعتصم إذ غلب جنس آخر جديد ، هو عنصر الأتراك الذى ظل قويا إلى عهد طويل

وانطفأ الصراع ثمة بين العرب والفرس إلى حين ، ثم بدأ فى صورة أخرى بين الفرس والأتراك عندما اتخذ المعتصم جنده من الترك . وبنى لهم مدينة « سر من راى » وكانت عصبية العرب قد ذهبت وغلب عليهم الترف والحضارة وكان العرب قد استطالوا بعد قتل الأمين ، فأراد أن يقوى عضده بسناد جديد ، فلم يجد غير الأتراك ، وكانت بداوتهم وبطشهم وجرأتهم من عوامل أعجابه بهم وانتصاره لهم .

واستفحل أمر الترك وقوى ساعدهم فكانت منهم الدولة السلجوقية التى تعد من أقوى الدول الاسلامية . فقد جدد السلاجقه الملكة ورفعوا كلمة السنة وقاوموا خصوم الاسلام . وكان لمعانى اسمهم ، واتساع سلطانهم سببا من أسباب يقظة الاوربيين وتكتلهم لمحاربة المسلمين باسم بيت المقدس وشن حملات الحروب الصليبية وكان الترك يقيمون عند ظهور الاسلام فى مايسمى منطقه وراء النهر فى بخارى وسمرقند وفرغانة واشروسنه وتركستان ثم لم يلبثوا أن تغلغلوا فى صميم المجتمع الاسلامى . وزحفوا حتى وصلوا إلى آسيا الصغرى .

أنقذ الأتراك الدولة من « بابك الخزمى » وفتحوا عمورية وانتقلت إلى أيدى قوادهم سلطة الوزراء الفرس ، وبهم تمكن مذهب السنة وغلب على مذهب الشيعة منذ عهد المتوكل على الله . ومن أعلام الأتراك محمود الغزنوى

فاتح الهند وقد ظل السلاجقة يحكمون العالم الاسلامى ثلاثة قرون من (٤٢٩ — ٧٠٠) فى كرمان وسوريا والعراق وكردستان وآسيا الصغرى ، وكان الأتابكة هم قواد لجيوش الأتراك ، ثم ورثوا دولتهم .

وقد تغلب الأتراك فى دورهم الثانى على العالم الاسلامى كله بقيام الدولة العثمانية فى القرن التاسع الهجرى وأصبحوا القوامين على العالم الاسلامى كله أربعة قرون كاملة .

* * *

كانت الخوارج والشيعة تحمل السيف فى سبيل الفكرة وتواجه الخلفاء والحكومات فتصارعها وتنتصر أو تهزم وجمل الخلفاء والولاة يقاومون هؤلاء جميعا بالحرب وتجريد الجيوش للقضاء عليهم . واستجاب الجرآء الشجعان لمقاومة هذه الحركات التى يراد فيها أضعاف سلطة الخلافة وزعزعة كيانها . .

والخوارج هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب بعد حادث التحكيم المعروف ، وأطلقوا على أنفسهم لقب «الشراة» وقد حاربهم «على» فى موقعة النهروان ومنهم الثلاثة الذين خرجوا لقتل معاوية وعلى وعمرو ... والذين أفلح من بينهم عبد الرحمن بن ملجم فى قتل على أخفق الآخران .

وقد ظلوا بعد ذلك يؤرقون الدولة الأموية ، ويتهددونها ويلاقون فى سبيل صراعها الكثير من العنت وقد عرفوا بالشجاعة النادرة ، ولولا أنهم انقسموا لكان يتوقع لهم النجاح فى القضاء مع الدولة الأموية -

ومن أظهر رجالهم نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة والطرماح ·

كان الخوارج غلاة فى مذهبهم ، يأخذون بأشـــد درجات الأمور وأعلاها فى العبادة والمعاملة ·

وكانوا غلاة فى الصوم والصلاة وصفوا بالجباه المقرّحة لطول السجود، والأيدى كثفنات الابل « شباب مكتهل ، عفيفه عن الشر أعينهم انضاء عباده ، تراهم فى جوف الليل منحنيه أصلابهم على أجزاء القرآن قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباهم .. » لقد زهدوا فى حطام الدنيا وكرهوا تجريد خصومهم وغضوا أعينهم عن الغنائم ورويت منهم الأعاجيب فقد هزم أربعون رجلا منهم جيش عبد الله بن زياد وعدته ألفى رجل ورأيهم فى الخلافة أنها لا تنحصر فى آل البيت بل تكون حقا لكل بالغ حر من المسلمين ، يختاره الناس اختياراً صحيحا — ولو كان عبدا حبشيا — وليس له إذا أختير أن يتنازل . وقد جمع عليهم هذا الرأى الكثير من غير العرب ·

ويرى «نيكلسون» أن الخوارج كانوا المثل الأعلى فى الدفاع عن العقيده والاستماتة فى سبيل الانتصار المبدأ ويرى أنه لو لانت قناتهم قليلا واعتصموا بالتسامح والاعتدال لكسبوا كثيرا ·

اشتد عليهم ابن زياد بالعراق . وكان أظهر رجالهم نافع بن الأزرق ، بعد أن اتجهوا إلى الجهاد كوسيلة عملية لمقاومة الظلم .

وتولى مقاومة الخوارج المهلّب بن أبى صفرة ، الذى ظل يطاردهم حتى

أجلاهم عن البصرة . وظلت الحرب سجالا بين المهلب والأزارقة من الخوارج إلى أيام عبد الملك بن مروان وطول عهده . ثم رأى أن يضرب الخوارج بالحجاج بن يوسف ، وظل المهلب قائد الحملات الموجه إليهم يقاتلهم عاما كاملا ... وكان على رأس الخوارج قطرى بن الفجاءة الذى قتل سنة ٧٧ وتفرق أنصاره .

ومن رجالهم شبيب الذى كان فارساً مغواراً جاهد طويلا فى مقاومة الأمويين ، إذ ظل يقاوم ستة آلاف من جيش الشام أكثر من ثلاثين مرة ، ولم ينهزم حتى هوت رجل فرسه فى النهر فغرق ، فلما قضى استطاع أهل الشام أن يحملوا على أتباعه فيهزمونهم .

وخمدت حركات الخوارج فى عهد عبد الملك . ولكنهم ظهروا فى عهد مروان بن محمد بزعامة الضحاك بن قيس سنة ١٢٧ فى العراق وقد قتل الضحاك وخلفه أبو حمزة الخارجى فقتله مروان بن محمد .

بين الاسلام وخصومه

بين الاسلام وخصومه

بدأ الصراع بين الاسلام وخصومه مبكراً . بدأ في حياة الرسول نفسه في صور متعددة : قريش وقد أزعجها انتشار الاسلام فحاولت أن تقتل محمداً، ومضت تعذب المسلمين ، وفي صورة تجمعها في بدر وأحد والخندق لتستحق الاسلام وتقضي عليه ، واليهود في صور المؤامرات المختلفة التي دبرت في حياة النبي .

ثم امتد هذا الصراع بعد وفاة النبي ، في صورة « الردة » العاصفة التي اجتاحت الجزيرة كلها ، حين ارتدت العرب من أطراف الجزيرة في نجد واليمامة واليمن وعمان وتهامه اليمن والبحرين ومشارق الشام وقالت : نصلي ولا نؤدي الزكاة .

وظهر المتنبئون في اليمن واليمامه ، ظهر الاسود العنسي ومسيلمه وطليحة وقالوا لكل قبيلة « نبي » وطمعوا في الانفصال عن حكومة المدينة وكان موقفا غاية في العسر على أبو بكر ، فقد خشي من حوله أن لا يستطيع المسلمون الوقوف أمام هذه الجائحة فقالوا له أقبل منهم . فان العهد حديث بهم ولا طاقة لنا بالوقوف أمامهم . ولكنه الصديق أصر على أن يقاتلهم على منع الزكاة ، وقال « والله لومنعوني عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم عليه » . وعقد أحد عشر لواء في يوم واحد جمل عليها خالد وعكرمه وشرحبيل والمهاجر وحذيفة وعمرو وغيرهم ووجههم إلى أنحاء الجزيرة .

وظهر هذا الصراع بعد ذلك في صورة الدعوة إلى حملها عبد الله بن سبأ اليهودي وكان لها أثرها في إفتتان المسلمين أواخر حكم عثمان . فقد دعا ابن سبأ لآل البيت ثم دعا إلى تأليه علي ، وألب الأمصار على عثمان وكان على رأس جمعية سرية تتخذ من الاسلام ستاراً تستتر به دعوتها لهدم الاسـلام ومن أشهر تعاليمه الوصاية والرجعة . وفـكرة الرجعة جاءت من اليهودية .

وأضمرت الدعوة إلى التشيع والبيئة الفارسية خطراً ظل يعيش طويلا في قلب الاسلام ويوالي العداء له بأسلوب أو بآخر .

ظهر ذلك في اتجاه الفرس الذي بدأه أبو مسلم وأتمه البرامكة ، ثم ظهر بعد ذلك في صورة نقل ولاية العهد إلى علي الرضا الذي كان معروفا بولائه للفرس في عهد المأمون وقتل العباسيين له .

وظهر الراوندية في عهد المنصور ، وأدعى زعيمهم «الأبلق» صلة نسبه بالنبي ، وكانوا يستبيحون الحرمات ، ويضمرون تحويل الخـلافة إلى ملك كسروي .

ثم ظهر المقنعة والخرمية ، وعلى رأسهم (بابك الخرمي) الذي قيل أنه من سلالة أبي مسلم الخراساني وقد تفاقم خطر بابك ودخلت أذربيجان تحت سلطانه . وانضوى إليه قطاع العراق وأصحاب الفتن وأرباب النحل الزائفة وتـكاثفت جموعه حتى بلغ فرسان رجاله عشرين ألف فارس وأخذ يغير بهم على القرى ويمثل بالناس ويحرق بالنار وقد حاربه الأفشين وهزمه وحمله إلى المعتصم فقتله وصلبه على الجسر ثم طوّف به في المدن والقرى .

وكان الخرمية يقولون بالرجعة والتناسخ ويعظمون أمر ابى مسلم ويتبركون بالخمر والأشربة وقد رفضوا الفروض الدينية .

وجملة القول أنه على أثر وفاة عمر بن الخطاب بدأت الدول الاسلامية تدخل فى مرحلة جديدة ، ظهر الهدامون الذين كانوا يتسترون تحت لواء الشيعة .

من هؤلاء على التوالى عبد الله بن سبأ والزنادقة والخرمية والبابكية والأفشين وابن ديصان والمزدكية والمانوية والقرامطة وحسن الصباح وقد غلبت روح المجوسية واليهودية على هذه الطوائف التى كانت تهدف من ذلك إلى هدم الدين وزلزلة الدولة .

وكانت النزعة الفارسية وراء كل هذه النزعات . بل أن حركة الالحاد جاءت من فارس . وعرف أن نزعة المغالاة فى الصوفية التى قام عليها السهروردى والحلاج وابن عربى وابن رشد كانت فارسية أيضاً .

والحلاج كان قريب عهد بالمجوسية فخلطه بمذاهب غريبة تتجه إلى غير الاسلام .

وظهر القرامطة أتباع حمدان قرمط والحسن الأهوازى سنة ٢٧٦ وكانوا يستترون بالتشيع وامتد أمرهم من العراق إلى الشام والبحرين واليمامه .

واستمرت حركة القرامطة مائة سنة مستترة وراء الدعوة لآل البيت وعمد أنصارها إلى مهاجمة طوائف الحجاج ونهب قوافلهم . وفى سنة ٣١٧ هـ اختطفوا الحجر الاسود وقتلوا الحجاج فى المسجد الحرام ونهبوا كسوة البيت . وظل الحجر حبيسا عندهم فى الاحساء ٢٢ سنة . واستولوا على البصرة ونهبوها .

وزعيم هذه الطائفة هو عبد الله بن ميمون القداح ويقول المؤرخون أنه من أصل يهودى أو مجوسى .

وقد استظل القرامطة بلواء الامامة الفاطمية .

أما الاسماعيلية الباطنية التى أطلق عليها اسم الحشاشين فقد اعتصمت بقلعة « ألموت » فى اقليم الجبل قرب بحر قزوين فى الطريق بين بغداد والشام وقد عاشت هذه الطائفة تلقى الرعب فى نفوس السلاجقة والصليبيين بعد أن تحصنت فى قلاعها المنيعة التى لاسبيل إلى اقتحامها ، وعرفوا بالفروسية وعاشوا يدربون أهل الطبقات الفقيره على الاستشهاد فى سبيل فكرتهم باسم مقاومة الدولة السلجوقية .

وهدفوا فى صميم دعوتهم إلى عداء السنة والتآمر ضد الاسلام وقد استولى الحسن الصباح على قلعة « الموت » فى ٦ رجب سنة ٤٨٤ هـ واتخذ الفلسفة ستاراً لمبادئه الهدامة . وأدعى الإمامة الروحية ، واستند إلى قوة قوامها جيش من الدعاة والفدائيين المتعصبين الذين يتشحون بأثواب من الزهد والورع ويعتمدون على الغيله .

ومات الحسن الصباح سنة ٥١٨ هـ وورثة سنان الجبل الذى كان يتمنع فى حصن مصياف على مقربة من طرابلس وهو من أمنع حصون الاسماعيلية فى الشام .

وقد حاصر صلاح الدين قلاعهم فى الشام وعمل على سحق نفوذهم وحاصر مصيات أمنع حصونهم سنة ٥٧٢ وفى سنة ٦٦٨ هاجمهم الظاهر

بيبرس وحاصر قلاعهم واقتحم مصيات ومزقهم شر ممزق وقتل الحشاشون نظام الملك وزير السلطان ملك شاه سنة ٤٨٥ هـ والكونت ريمون أمير طرابلس وغيره من الأمراء السلاجقة .

وقد حاول سنان الجبل اغتيال صلاح الدين ، فطعن السلطان بخنجر فى رأسه وقد كان متقيا بالدروع المصفحة ثم ضربه فى جسده فجرحه جرحا بليغا

وقاوم الغزالى دعوتهم بقلمه واستمرت المعارك بين السلاجقه وبين الاسماعيلية قرنا ونصف . كما اصطدموا بفرسان المعبد ، إحدى طوائف الصليبيين ، واصطدموا بهولاكو الذى حاربهم طويلا .

ومن خصوم الاسلام أصحاب حركة الزنج وعلى رأسهم على بن محمد الذى ادعى أنه متصل بنسب على بن أبى طالب . وقد جمع الزنج وعبر بهم نهر دجله وشخص من سامرا سنة ٢٤٩ هـ إلى البحرين ودعا الناس إلى طاعته ، واستولى على بعض ضعاف العقول من العبيد السود الذين كانوا قد أصبحوا قوة عاتية جبارة تخيف الولاة والخلفاء . واستطاع بعد قليل أن يستولى على الأهواز ثم البصرة سنة ٢٥٧ وقد استباحوها ثلاثة أيام وليلتين وحرقوا المسجد وعم الحريق البصرة وقتل منهم كثيرون . وقد وصف الحادث ابن الرومى فى قصيدة طويلة منها قوله :

كم أغصوا من شارب بشراب ... وكم اغصوا من طاعم بطعام
كم جنين بنفسه رام منجى ... فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخاه صريعا ... ترب الخدين صرعى كرام

كم أب قد رأى عزيز بنيه وهو يعلى بصارم صمصام
كم منذب من أهله أسلوه حين لم تحمه هناك حسام
كم رضيع هناك قد فطموه بشبا السيف قبل حين الفطام

ومن هذه الحركات حركة بابك والأفشين ، وقد كان هناك اتفاق بينهما على سلخ البلاد التركية والايرانية من الخلافة العباسية لتكون أمارة مستقلة ، ويروى أن الأفشين كتب إلى مازيار وهو أحد زعماء البابكيه يقول: لو أتبعتنى لاستطعنا أن نقضى على الإسلام ونرجع إلى ديننا الفارسى القديم ، ومع ذلك فقد حارب الافشين بابك ، وضم الخزمية إلى جيشه .

كما حارب المأمون بابك بعد أن وكل إلى الأفشين القضاء عليه فواصلت الجيوش الاسلامية بقيادة الأفشين الانتقام منه .

وسار الأفشين لمقابلة بابك وأظهر فى قتاله من البراعة ماجعل المسلمون يلهجوا بذكره وأسر بابك وأحضر إلى المعتصم ثم قبض على الافشين بعد أن ضبطت خطابات منه إلى مازيار يحرضه على الخروج على عبد الله طاهر والى خراسان فلما حقق معه ثبتت خيانته للاسلام والمعتصم .

ثم اندلع الصراع من ناحية أخرى حيث بدأ من خارج المنطقة الاسلامية ، فقد أحست أوربا خطر الاسلام الذى نما واتسع سلطانه ، وقد جاءت الدعوة لها نتيجة لظهور السلاجقة بمظهر القوة واتساع نطاق سلطانهم السياسى واستيلائهم على بيت المقدس واكتساحهم أملاك الامبراطور الاسيوية حتى بحر مرمره ، وكان أول من دعا إلى هذه الحروب هو بطرس الناسك ، فقد طالب بحماية البقاع

المقدسة ، وساق إلى الشرق جموعا من شذاذ الآفاق فكانت حركاتهم صورة من العربدة والمطامع ولم تكن جهاداً دينيا منظما ، وأسبغت البابويه صبغتها الدينية على هذه الحملات .

بدأت هذه الحملات سنة ٤٩١هـ (١٠٩٨) حيث استولى جودفروا دى بويون وزملائه قواد الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس وكثير من مدن الشام وثغوره وأنشأوا المملكة اللاتينية ، ثم توالت الحملات على الشام ومصر حتى سنة ١٢٧٠ أى أنها استمرت حوالى ١٧٠ عاما .

واستولت هذه الحملات على عكا وطرطوس وانطاكية وحلب . وأقامت أربع أمارات لاتينية : هى بيت المقدس وطرابلس وانطاكية والرها .

ثم بدأت حملات مضادة من الجانب الاسلامى على الفرنجة ، بدأها عماد الدين زنكى ونور الدين زنكى سلطانا الموصل وتبعهما فيها صلاح الدين الأيوبى الذى احتل طبريه سنة ١١٨٧ ، وانتصر فى معركة حطين ، وأسر لوسيتيان ملك أورشليم ورفيقه الملك راجينا ، ثم خان الأخير عهد صلاح الذى أطلقهما وقد قتله صلاح الدين بيده .

وسلمت أورشليم إلى صلاح الدين سنة ١١٨٨ ودانت له المدن الأفرنجية فى سورية وفلسطين وسقطت فى يده أغلب القلاع ولم يبق فى حوزة الفرنجه إلا انطاكية وطرابلس وصور وبعض المدن الصغيرة .

وعلى أثر ذلك قدمت الحملة الصليبية الثالثة وعلى رأسها امبراطور المانيا

وملكا فرنسا وانجلترا : فردرك بربروسا وفيليب أوغسطس وريتشرد قلب الأسد .

وهاجمت القوة عكا ، ووقف صلاح الدين يدافع عنها ، ودام الحصار عامين كاملين واضطرت عكا إلى التسليم أخيرا ، وأسر الفرنجة زهاء ألفين وسبعمائة من المسلمين ثم أطلق سراحهم بعد مفاوضات انتهت بأن يكون الساحل للاتين والداخل للمسلمين ومات صلاح الدين بعد ذلك بشهور قليلة .

وأغارت الحملات الصليبية على مصر مرتين : الأولى بقيادة جان دى برين ملك بيت المقدس وكان فى مائتا ألف رجل . هاجموا مدينة دمياط ثم نفذوا منها زاحفين إلى القاهرة وقد تمكنت قوات الملك الكامل من قطع جسور الترع التى تحيط بقوات الصليبيين فهزموا .

ثم هاجمت مصر حملة أخرى على رأسها لويس التاسع حيث نزلت مدينة دمياط وزحفت منها إلى قلب الدلتا . ولكنها لم تلبث — وقد انقطعت عنها الامدادات وتفشى فيها الوباء — أن هزمت فأسر المصريون منهم ما بقى بعد هلاك أغلب الجيش بين جريح وذبيح .

وخلف صلاح الدين فى توجيه الضربات إلى الصليبيين الظاهر بيبرس إذ احتل الكرك واقتحم قيساريه وانطاكية وانتزع حصن الأكراد من أيدى الفرسان .

ثم واصل قلاوون خطة بيبرس فاستولى على حصن المرقب بجوار

طرابلس كما هاجم الملك الأشرف عكا ، وقد فتحها المسلمون بعد حصار دام شهراً كاملا . ثم استولى على صور وصيدا وبيروت وطرطوس .

وساق لويس التاسع حملة صليبية أخيرة على تونس وقد فشلت هذه الحملة وكانت نتيجتها خاسرة .

وكانت التتار من عوامل هذا الصراع ، وقد امتد صراعهم فترة طويلة استغرقت حياة ثلاثة من رجالهم هم جيكيزخان وهولاكو وتيمورلنك في فترة امتدت من ٦٠٣ هـ إلى ٨٠٧ مدى في قرنين من الزمان وقد انساق التتار من شمال الصين ثم نفدوا إلى قلب آسيا ، واجتاحوا عواصم الاسلام حتى وصلوا إلى بغداد في خلال أربعين عاما فاطفئوا منائرها .

وانمحت معالم الحضارة والمدنية والقصور وخزائن الكتب من مدن هراه ومساجد بخارى وسمرقند وبلخ وخوارزم ، فقد خربت هذه المدن جميعها واستبيحت دماء أهلها فقتل منهم عدد كبير ، ووقع من بقى منهم في الأسر .

وكان هولاكو يرمى إبادة الخلافة ، وقد اقتحم بغداد سنة ١٢٥٨ م سنة ٦٥٦ هـ بعد أن دمر أسوارها بالمنجنيق ، وقتل الخليفة وثلاثمائة من أهله وخاصته وأعمل النهب والنار والتقتيل في المدينة وظلت الجيف النتنة وأشلاء القتلى مطروحة في الشوارع أياما تنبعث منها الروائح الكريهة .

واندفع هولاكو إلى الشمال فهدد الشام ، واستولى على حلب وأعمل السيف فى رقاب ٥٠ ألفا من سكان حماه وحارم .

ومضى تيمورلنك في اتمام خطط سلفيه ، فانقض بجيوشه على الشام سنة ٨٠٣ هـ سنة ١٤٠٠ م واستولى على مدينة حلب وهزمته مصر فى «عين جالوت» ثم اتجه نحو آسيا الصغرى واصطدم بالسلطان بيازيد العثمانى فى هضاب أنقرة بعد أن استولى على أنقرة وبروسه ووصل إلى حافة البحر .

وليس شك أن من أقسى حلقات هذا الصراع بين الاسلام وخصومه «نهاية العرب فى الأندلس» .

والواقع أن نهاية العرب فى الأندلس لم تكن حادثة وقتها . وانما كانت نتيجة لصراع طويل بين الفرنجه والمسلمين ، تمزقت خلاله جبهة المسلمين ، فقد بدأت مرحلة الضعف والانحلال منذ قيام مملكة غرناطه وامتدت إثر هذا حوالى قرنين ونصف .

والواقع أن هناك عنصراً قديماً صاحب قصة الأندلس منذ اليوم الأول ذلك هو أن طائفة من القوط إعتصمت بالجبال بعد الفتح ، وظلت كذلك إلى أن تمكنت من تأسيس دويلات مسيحية أهمها قشتالة ونفاره وأرجونه والبرتغال ثم ضمت صفوفها وهاجمت العرب وظلت تكتسح مدنها حتى استولت على قرطبة سنة ١٢٣٦ .

واعتصم المسلمون فى الجنوب الشرقى من شبه جزيرة الأندلس ٠ وأقام بنو الأحمر أمارة غرناطة الشهيرة التى بنوا بها قصر الحمراء ٠

وبلغت أمارتا (قشتاله وارجون) مبلغا عظيما من القوة وتصاهرتا فأصبحتا مملكة واحدة ثم عقدت الدولتان النية على اخراج المسلمين من الأندلس وبدأت جيوشهما فى تضييق الخناق على غرناطه ٠ حتى أنه لم يأت عام ١٤٩٢ حتى سقطت فى أيديهما .

وقد اضطهدوا المسلمين وحملوهم على التنصر ، ثم لم يلبثوا أن قاموا لهم محاكم التفتيش وارتكبوا معهم فظائع عديدة بعد أن وقعوا لهم عهداً بحرية العبادة مما نفصله فى الفصل التالى .

الاسلام فى الأندلس

هذا الغريب الذى جاء ومضى كالطيف . دخلها المسلمون سنة ٧١١م وكان آخر عهدهم بها سنة ١٦١٠ م ، فى مدى ٩٨٩ عاما لم تكن كلها من أيام المجد والنصر . فمنذ سقوط غرناطه سنة ١٤٩٢ وفى خلال ١١٨ عاما قضى المسلمون سنوات شريدة مظلمة كلها الآم ... هى السنوات التى بدأ الفرنجة فيها يستأسدون ويتأهبون لتحطيم هذا المجد وتمزيق هذه المجموعة الباقية من المسلمين

ومنذ جاز طارق وموسى البحر إلى شبه جزيرة أيبريا ، إلى آخر أيام المنصور كانت هذه سنوات المجد والقوة والتفوق (من سنة ٩٢ – إلى ٣٩٠ هـ) ثم دخلت الأندلس فى سنوات الصراع والكفاح وتنازع السلطان فى عهود ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين وأمارة غرناطه ثم لم يلبث أن ظهر فرديناند وايزابيلا ، وضما مملكتهما ووقعا معاهدة اجلاء المسلمين ...

فتح العرب أسبانيا بقيادة طارق بن زياد الذى أرسله موسى بن نصير ومعه سبعة آلاف رجل جلهم من البرابرة للاغارة على الأندلس . فأرسى سفنه فى ضمرة الأسد والتقى الجيشان على شاطىء سماه المسلمون « وادى بكه » وسرعان ما توغل طارق وطلب مدداً فى خمسة آلاف من البربر .

ومضى المسلمون يزحفون . ولم يتوقف زحفهم بعد انضمام جيش موسى ابن نصير . إلى أن هزم كارل مارتل عبد الرحمن الغافقى فى موقعة تور أو « بلاط الشهداء » (٧٧٢ م – ١٠٢ هـ) وهو أول جيش إسلامى يخوض معركة فى ١٢ ألف جندى .

هذه المعركة التي يطلق عليها الأوربيون « بلاط الشهداء » وكان العرب قد وصلوا إلى ضفاف اللوار . لقد اندفع المسلمون وراء جبال البرنية ، وأجتاحوا ولاية فرنسا الجنوبية في عشرين عاما . وبسطوا سلطانهم على سهول الرون . وتأهبت أوروبا للنضال والمقاومة وفي هذه المعركة قتل عبد الرحمن الغافقي والسمح بن مالك وارتدوا بعد أن فقدوا بعض جيوشهم وسجل المؤرخون أن الهزيمة جاءت نتيجة لخدعة من كارل مارتل بأن الفرنج هاجموا معسكرهم وأخذوا غنائمهم .

ولكنهم لم يتوقفوا إلا ثمة ، ثم عاودوا إلى الاندفاع في قلب فرنسا حتى استولوا على دوفينه ونيس ومرسيليا وتمكنوا من جبال البرنيه والألب في جنوب فرنسا . بل لقد بقي العرب في إقليم روفيس إلى ٧٥٩ م .

وترك المسلمون لأهل أسبانيا حرمة دينهم وشعائرهم وحكامهم ، حتى استطاع الكثير منهم أن يصلوا إلى كبريات المناصب . ولم يجد اليهود مكانا يعيشون فيه في أحضان السلام إلا الأندلس .

ولكن هل استطاع العرب فعلا أن يحوطوا هذا الملك الجديد بما يجب له من قوة ويقظة ... ؟ نقول لا مع الأسف .

فقد تركوا طائفة من القوط اعتصمت بالجبال وأسست دويلات مسيحية أهمها قشتاله ونفارة وأرجونه والبرتغال . ثم استطاعت هذه الدويلات أن تضم صفوفها بعد وقت طويل وأن تهاجم العرب وتستولي على قرطبة سنة ١٢٣٦ . لقد ظل النصارى في الشمال يرقبون الدولة بيقظة وتحفز وكانوا

وراء كل الثورات الداخلية يمدونها بالمال والرجال ونسى المسلمون أن هذا الصراع سيكون على حسابهم ولفائدة الفرنجة وحاكوا كثيرا من المؤامرات والدسائس بين الولاة والحكام .

شهدت الأندلس ازدهر عهودها فى أيام عبد الرحمن الداخل (٧٥٦ — ٧٨٧) هذا الذى خرج من الشام متنكراً وأسس دولة عربية ضخمة سامقه بلغت ذروة المجد فى عصر حميده عبد الرحمن الناصر (٩١٢ — ٩٦١) . وفى عهد عبد الرحمن الداخل انفصلت الأندلس عن خلافة المشرق .

أما عبد الرحمن الناصر فقد قمع فتنة العرب وقام فى وجه الثورات وحارب أعدائه من القشتاليين خمسة عشر سنة وفى عهده اختلف الأسبان وأعلنوا الحرب ومما دعاه إلى أن يعلن نفسه خليفة عند ما علم أن مؤنس الخليفة المقتدر بالله العباس بالمشرق ٣١٧ هـ .

ظلت الأندلس شعلة النور ومنار الهـــداية فى قلب أوربا . وكانت جامعاتنا فى قرطبـة واشبيلية وغرناطه ملتقى طلاب العـلم من الشرق الخادم قتل والغرب .

ولـكن هل استطاعت الأندلس أن تحمل اللواء طويلا ...

لقد أخذ نجمها يأفل بعد مضى ثلاثة قرون ، كان من عوامل هذا الانحدار الصراع بين العرب والبربر مما أدى إلى انقسامهم إلى عشرين دويلة .

وكان مصدر حقد البربر على العرب أنهم بالرغم قيامهم بمعظم أعباء الفتح فقد استأثر العرب دونهم بالمغانم والمناصب واندلعت الحرب بين المضرية واليمانية مرة وبين الشامية والمصرية . وبين البربر والمولدين .

ظلت قيادة الأندلس مدى ثلاثة قرون ، لحكومة قرطبة فلما سقطت الدولة الأموية الأندلسية تفرق الجمع وورثها ملوك الطوائف .

وفي ثورة ملوك الطوائف ٤٦٠ هـ هدم الثائرون قصور الخلافة ونهبوا ما فيها من الأموال والتحف .

وكان هناك الصراع بين المسلمين والنصارى والصراع بين القبائل والأجناس .

وفي أيام ملوك الطوائف كان بنو عباد في اشبيلية وبنو زيري في غرناطة وبنو ذي النون في طليطله وبنو عامر في بلنسيه وبنو هود في سرقسطه وبني حمود في قرطبه ...

وتعد هذه المرحلة أقسى المراحل في تاريخ الاسلام في الأندلس فهي مبدأ الانحلال والتمزق . ولو اتحدت الدولة في هذه الفترة لكانت سداً منيعا في وجه النصرانية الزاحفة بقوة .

واستنقذت إسبانيا المسلمة مرتين - إستنقذها المرابطون في موقعة الزلاقه ١٤ رجب ٤٧٩ حينما تقدموا من أفريقية إلى الجزيرة بقيادة يوسف ابن تاشفين الذي عبر بناء على دعوة ابن عباد بجيوش جراره على رأسها

قائده « داود بن عائشة » فرق جيوش الاذيفونس ملك قشتالة وبدأت الأندلس لتبدأ مرحلة جديدة من الحياة . . .

ثم استنقذت مرة أخرى على أيدى الموحدين بقيادة يوسف بن عبد المؤمن حيث انتصر على قوات النصرانية فى موقعة الكرك . وقتل فى هذه المعركة مائة ألف . وكان المامون بن الناصر قد لجأ إلى ملك قشتالة لينصره على أخيه وعلى الموحدين فاشترط شروطا منها أن يأخذ عشرة حصون يختارها وأن يبنى لهم كنيسة فى مراكش . وكان من نتيجة ذلك أن استولى الفرنجة على قرطبة وجزر البليار وبلنسية وسبته وقد استطاع الموحدون أن يضعوا أيديهم على الجزيرة الخضراء سنة ٥٤١ هـ ثم نزلوا اشبيلية ومالقه وبعد أربع سنوات كانت قرطبة وباقى القسم الجنوبى من اسبانيا تحت حكمهم .

وبدأ مجد غرناطة من ٦٣٥ إلى ٨٩٧ حين أقام بنى الأحمر أمارة غرناطه وتقلصت إسبانيا المسلمة فى مملكة غرناطه فقد وقفت تقاوم طغيان الفرنجة بعد سقوط قرطبة ٦٣٣ وبلنسيه ٦٣٦ ومرسيه ٦٤١ واشبيليه ٦٤٤ . وكانت طليطله أول ركن منيع أنهار من صرح إسبانيا المسلمة عندما استولى عليها الفرنجة سنة ٤٧٨ .

* * *

ما هى عوامل الانهيار ؟

مما يزهدنى فى أرض اندلس ... القاب معتصم فيها ومعتضد

القاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

منـذ بدأ عهد ملوك الطوائف قامت فى الأندلس عشرين دوبله فى عشرين رقعة أو مقاطعة وكانت الزعامه لأشبيليه ثم لقرطبة . وإنتقلت الزعامة من العرب للبربر . ثم انتقلت الزعامة إلى المرابطين ثم الموحدين .

وعلة العلل أن العرب لم يستطيعوا أو لم يتمكنوا فى القرن الثامن من القضاء على بقايا السلطة النصرانية فى الجهة الشمالية الجبلية فبقيت ثغرة صغيرة كانت هى المصدر الأول والأخير لهذا الانحدار . ثم دب الخلاف الداخلى وأخذت المعارك الأهلية تشطرها وتجعل كل فريق يتربص بالآخر وانقسمت أخيرا إلى غرناطه وفيها أبو عبدالله بن محمد بن السلطان ابن الحسن النصرى . ووادى اش ويحكمه عمه أبو عبد الله المعروف بالزغل .

وقد استطاع فرديناند ملك قشتاله ، وحليم ملك أرجون أن يستولوا على مدن بلنسيه وقرطبه وأشبيلية ومرسيه وأصبح حكم العرب محصوراً فى مقاطعة غرناطه ثم أدى بنو الأحمر الأتاوة لفرديناند ثم لأبنه الفونسو .

وبدأت تسقط المدن فى أيدى الفرنجة بلداً بعد آخر ، فسقط حصن لوره وغيره من الحصون (٨٨٩ هـ) وحاصروا مالقه ، ووضعوا الألغام تحت الأسوار ونسفوا المعاقل بالبارود لأول مره .

وكان أخطر الأحداث أثراً فى هزيمة إسبانيا الإسلامية هو إتحاد مملكة « قشتالة وأرجون » بزواج ملكيها « ازبيلا وفردناند الخامس » ثم

عقدت الدولتان النية على إخراج المسلمين من الأندلس وبدأت جيوشهما تضيق الخناق على غرناطه ٠

ولم يأت عام سنه ١٨٩٢ حتى سقطت في أيديهما فقد زحفا في ٥٠ ألفاً لحصار غرناطه **٨٩٦ هـ** وقاتل المسلمون دونها شبراً شبراً .

وترقب العرب وصول النجدات من مصر أو تركيا بعد أن عقدت معهم شروط التسليم الذى تحدد زمنا للهدنة لا يجوز بعد انقضائه أن تصل إلى المدينة أى نجدة فلما لم يصل أى مدد ، زحفت جيوش الأفرنج إلى غرناطه ونصبت الصليب الفضى الكبير فوق برج الحمراء . وسلم أبو عبدالله آخر خلفاء المسلمين فى الأندلس مفاتيح غرناطه إلى فرديناند ثم اجتاز عبد الله بر العدوه .

وأمّن فرديناند المسلمين أول الأمر على أموالهم وأزواجهم وشريعتهم وحرية عاداتهم وشعائر دينهم فلا يرغم مسلم على التنصر ولايولى عليهم يهودى أو نصرانى . وأن يجوز إلى أفريقيا من شاء فى سفن تقدم إليهم

غير أنه عذر بهم عذرا شنيعا ، وارتكب المسيحيون فظائع عديدة ، بالمسلمين بعد أن عاهدوهم على حرية العبادة ، إذ أجبروهم على التنصر واضطهدوهم وركبوا أشنع الجرائم البربريه معهم ٠ إلى درجه أنهم جمعوا المصاحف وذخائر العلم والفكر الإسلامى فى ساحة المدينه وأضرموا فيها النار ٠ وكان فى مكتبة قرطبه وحدها مليون كتاب .

ورتبوا أنظمة كهنوتيه لمحاربة المسلمين أسموها بأنظمة فرسان الهيكل

وقد إرتدت الألوف المؤلفة خوفا من القتل والتشريد . وهاجرت جموع أخرى إلى ثغور أفريقيا . أما المسلمون الذين بقوا فقد إستحالوا إلى طائفة من « الموريسكين » أى العرب المتنصرين . ولكن هذه الفئة أيضا أبيدت فى عهد فيليب الثانى ·

لم يلبث فرديناند أن دعا المسلمين إلى التنصر . وأغلقت المساجد وحظر على المسلمين إقامة شعائرهم . وانتهكت عقائدهم وشريعتهم · وبدأت حملة لأكراه المسلمين على التنصر · وأجبروا على تعميد أبنائهم ·

وفى ١٠٥١ م صدرت إدارة ملكية تقضى على من فى قشتاله وليون من المسلمين أما بالرجوع عن دينهم أو الجلاء عن البلاد . وفى ١٥٥٦ م فى عهد فيليب الثانى أمر المسلمون بالتخلى عن اللغة والعبادة ·

وفى ١٦٠٩ فى عهد فيليب الثالث صدر الأمر باجلاء المسلمين وكانوا نصف مليون فهاجروا فارين بدينهم وأمتنعت طائفة منهم فى جبال البشرات ذات المعاقل الثلجية ·

ثم انفجرت الثورة سنه ٩٧٦ ﻫ واستمرت مشتعله سنوات وبدأت موجة التعذيب والقتل والخيانة ، ودافع المسلمون عن أنفسهم دفاعا مجيداً وأظهروا بطولة فذة وفى آخر مواقعهم أنتقموا من خصومهم إنتقاما بالغاً ، وذبح العرب القساوسة سنة ٩٧٨ وذبح الفرنجة النساء والأطفال ولطخت قرى البشرات بالدماء ·

وكان الدون جون (٩٧٨ هـ — ١٥٧٠) يحرق القرى بمن فيها ، ويوقد النار فى المختبئين فى الكهوف والأغوار . ويفرض النفى والرق لكل من نجا من القتل ، وقد قتل فى هذه الثورة ٢٠ ألف عربى . وفى عيد القديس احتفلوا بقتل من بقى من العرب .

وفى ١٠١٩ هـ — ١٦١٠ كان قد اكتمل من أصيب من المسلمين بالقتل أو الحرق أو النفى ثلاثه ملايين .

وقتل الراهب ميلدا ١٦١٠ م فى حركة إجلاء المسلمين عن أسبانيا مائة ألف مهاجر فى قافلة واحدة مكونة من ١٤٠ ألف مهاجر وبنى النصارى الكنيسة الجامعة فى قلب مسجد قرطبة ووضعوا فى المحراب صورة القديس فرديناند — فى وسط دائرة من الذهب — وهو على ظهر فرسه وأمامه ملك العرب يقدم إليه مفاتيح المدينة .

ويعد مسجد قرطبة من أعظم مساجد العالم . كان من ثرياتة واحدة توقد ألف مصباح وأنفق على بنائه ثمانية ألف قطعة ذهب . ويبلغ طوله ٩٥ ذراع وقبته مقامة على ٣٦٥ عاموداً من الرخام وبه ٤٠٠ مصباح من الفضة .

واعتبر الافرنج هذه المجزرة الشنيعة انتقاما من المسلمين بعد استيلاء الأتراك على القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ٧٥٨ هـ وهكذا خلت الأندلس من المسلمين من البرنية إلى صخرة طارق ومن المحيط إلى شواطىء برشلونة .

الصليبيون فى الشرق

جاءت فكرة الحملة الصليبية نتيجة لبروز عنصر السلاجقة بصورة واضحة فى الشرق .

فقد تصور الفرنجة أن هناك خطراً على « بيت المقدس » نتيجة لقوة هذا الدم الجديد الذى استولى على مقاليد السلطة فى مقر الخلافة . وقد جاء هذا على أثر التفكك الذى أصيبت به الدولة الإسلاميه قبل ذلك . فقد اكتسح السلاجقة أملاك الإمبراطورية حتى بحر مرمرة سـنة ١٠٩٤ م ٤٨٧ هـ وعسكر المسلمون تحت أسوار القسطنطينية فاهتزت أوربا لهذا الحدث ، واستنجد الأمبراطور الكسيوس بالبابا أرمانوس الثانى خوفاً من هذا الخطر الجديد . ورأى البابا الفرصة سانحة ليضم الكنيسة اليونانية إلى كنيسة روما ، فدعا إلى هذه الحروب التى كانت دفعاً للسلاجقة عن مهاجمة أوربا وكانوا يعدون هذه الخطوة مرحلة طبيعية لانتصاراتهم .

ويرتبط بهذا فى نفوس الغربيين معارك ضفاف اللوار . ومصرع الأندلس .

بدأت هذه الحملات ٤٩١ هـ — ١٠٩٨ م وانتهت ٦٤٤ هـ ١٢٥١ م . أى أنها استمرت ١٥٣ عاماً وهذا بخلاف حملة القديس لويس بعد هذا التاريخ بعشرين عاماً على تونس وهى ما يطلق عليها المؤرخون الحملة الصليبية الثامنة وقد أعلنت هذه الحروب باسم حماية البقاع المقدسة ، وسحق أعداء

الدين ، وكان الباعث الديني هو الذي جمع هذه الجموع التي انطلقت إلى الشرق ، من شذاذ الآفاق ، على فرق بين النزعة بين هذه الحماسة الفوضوية وبين نزعة الجهاد الاسلامية .

واقد اعترف المؤرخون جميعاً — ومن بينهم المؤرخون الأوربيون — بأن حركات الصليبيين كانت صورة من العربدة والمطامع تحت تأثير حماسة مفتعلة . وقد أسبغت البابوية دوماً صبغتها الدينية على كل حركة من هذا النوع .

وكان ألب أرسلان قد هاجم البيزنطيين سنة ١٠٧١ بعد أن امتد سلطان السلاجقة حتى شمل بلاد العجم والعراق والشام وآسيا الصغرى وامتد إلى بحيرة مرمرة . وتدفقت جيوشهم إلى الأراضي البيزنطية وشاطيء البحر الأحمر وهاجموا حدود الدولة الرومانية الشرقيـة التي استغاثت بالبابا ودول الغرب .

وقد تطوع الراهب بطرس الناسك فزار البقاع المقدسة وعاد يحمل راية سبيل الثورة ويخطب في الدهماء والعامة وجاب إيطاليا وفرنسا وعمل في الثورة على المسلمين والتحريض على الزحف باسم إنقاذ قبر السيد المسيح وكانت هذه الحروب في مرماها السياسي تهدف إلى تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين لايجاد كنيسة وحكومة لاتينية في الشرق وبذلك يتوطد للكنيسة الغربية هدفاً من أعظم أهدافها وهو بسط السيطرة على جميع أنحاء العالم المسيحي .

واستطاعت الحملة الصليبية الأولى أن تنفذ إلى فلسطين فى الوقت الذى غفل فيه السلاجقة عن الخطر الصليبي . وقد منى المسلمون بهزيمة منكرة فى أنطاكية . وعبروا البسفور ، واستولوا على النهرين دجلة والفرات وأقاموا أول إمارة صليبية لاتينية . وقتل الصليبيون ٧٠ ألف مسلم فى خلال ثلاثة أيام فى همجية منكرة واقتحموا بيت المقدس سنة ١٠٩٩ وانتخبوا « جودفرى » ملكا عليه . ثم فتحوا عكا وطرابلس وصور وأنشأوا إمارة طرابلس . وبذلك تكونت أربع إمارات صليبية فى الشام . وكلها على الساحل . وبقيت المدن الداخلية فى أيدى المسلمين كدمشق وحلب .

وبعث قائد الصليبيين إلى البابا عبارته المشهورة « إن خيولنا كانت تخوض إلى ركبتها فى بحر من دماء المسلمين فى إيوان سليمان ومعبده » .

وقدمت الحملة الصليبية الثانية بعد نصف قرن (١١٤٧) على أثر ظهور عماد الدين زنكى كبير الأمراء السلاجقة ، الذى وحّد الجبهة وضم الموصل والعراق وجمع المسلمين ووحدهم لمقاومة الصليبيين وبعد أن استطاع أن يحتل حلب ويسترد الرها .

وكان السبب المباشر لهذه الحملة فتنة الأرمن فى الرها وهى التى وقعت سنة ١١٤٧ فدمرها نور الدين ، فاندفع الصليبيون بقيادة (سان برنار) الراهب الفرنسى ، وضمت لويس السابع ملك فرنسا ، ولونراد الثالث امبراطور المانيا . وفقد الصليبيون ثلاثة أرباع قواتهم قبل أن يصلوا إلى سوريا وارتدوا فاشلين قبل أن يصلوا إلى دمشق .

وقدمت الحملة الصليبية الثالثة بعد أربعين سنة (١١٨٩) وكان نور الدين زنكي قد خلف والده عماد الدين . وفكر فى الاستيلاء على مصر على أثر ضعف قيادتها ومحاولة الصليبيين الاستيلاء عليها .

فقد بدأ نور الدين محمود يؤلف جبهة إسلامية عامة توحدت فيها الصفوف الاسلامية من سنة وشيعة ضد الصليبيين .

ثم ورث صلاح الدين نور الدين . وعمد إلى إسترجاع بيت المقدس واستطاع أن يحقق ذلك بعد أن هزم الصليبيين هزيمة ساحقة فى موقعة حطين (١١٨٧) واحتل طبريه واسترد القدس وأعاد للمسجد الأقصى كيانه . وسحق المملكة اللاتينية بعد ٨٠ عاما من قيامها .

وقد اشترك فى هذه الحملة فيليب أوغسطس امبراطور فرنسا وقلب الأسد ريكاردوس بملك بريطانيا وفردريك امبراطور المانيا ..

وسقطت فى يد الحملة الثالثة مدينة عكا (١١٩١) وعقد صلاح الدين صلحاً مع الصليبيين بهدنة ثلاث سنوات ترك فيها بيت المقدس لحكم المسلمين بشرط أن يسمح لغيرهم بالحج وانتقلت زعامة الصليبيين ومركزهم إلى عكا بدلا من القدس وهكذا حبس صلاح الدين الصليبيين فى شريط ضيق على الساحل .

وقدمت الحملة الصليبية الرابعة بعد اثنى عشر عاما (٦٠٠هـ - ١٢٠٢م) وكان وجهتها مصر . غير أنها لم تتجاوز مياه البسفور حيث اشتبكت مع

بيزنطة وانحرفت إلى النهب والسطو على أسلوب العصابات وتدخلت فى احداث الدولة البيزنطية وانتهت بالبقاء فى قسطنطينية . وتأسيس مملكة لاتينية صليبية امتدت ستين عاما .

واتجهت الحملة الصليبية الخامسة إلى مصر . قدمت بعد سبعة عشر عاما (١٢١٨ ـ ١٢٢١) وكانت مكونة من ٢٠٠ ألف رجل من الفرنجة بقيادة جان دى برين ملك بيت المقدس ونزلت قرب دمياط على المصب الشرقى للنيل . وسقطت المدينة فى أيديهم بعد مقاومة ، فارتكبوا منها من الفظائع ما تقشعر منه الانسانية . ثم تقدموا زاحفين إلى القاهرة . وكانوا قد هاجموها فى ٧٠ ألف فارس و ٤٠٠ ألف مشاه ودام الحصار ستة عشر شهراً وفى أثناء المقاومة مات الملك العادل وخلفه الكامل فشيدت الاستحكامات فى أرض المنصورة . وتمكن المصريون من قطع جسور الترع التى تحيط بقوات الصليبيين فأحاطتهم المياه وهزموا وطلبوا الصلح .

واتجهت الحملة الصليبية السادسة التى قدمت (سنة ١٢٢٨) بقيادة فردريك الثانى ملك جرمانيا إلى سوريا وكانت حوالى ١٠٠ ألف مقاتل وقد كسبت للمسيحيين القاطنين فى بيت المقدس بعض الامتيازات .

ووصلت الحملة الصليبية السابعة إلى شواطىء مصر سنة ١٢٤٨ أى بعد عشرين عاما تحت قيادة لويس التاسع ملك فرنسا وهو الذى يسمونه الملك القديس . وقد هلك الجيش عن آخره مابين جريح وذبيح . وأسر الملك وأثنان من أشقائه وسيق آلاف من نبلاء فرنسا عبيداً أذلاء . واستعمل

المصريون فى هذه المعركة النار اليونانية عندما اشتبكوا معهم فى المنصورة فى مواقع متعددة . وانتهت هزيمتهم بمفاوضة المسلمين بالانسحاب من دمياط على أن يترك لهم المسلمون بيت المقدس .

وقد أسر لويس فى ٢ محرم ٦٤٨ هـ فى منية أبى عبد الله الواقعة قريبا من فارسكور واعتقل فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان ووضع القيد الحديدى فى يديه ورجليه وافتدى بأربعمائة ألف دينار .

ولقد قاد لويس فى ٤ يوليه ١٢٧٠ — أى بعد عشرين عاما حملة صليبية ثامنة على تونس فى جيش قدره ٣٦ ألف وقتل فيها لويس وسواد جيشه .

* * *

وتوقفت الحملات الصليبية على الشرق ... وبدأ نضال جديد ، حمل لواءه المماليك فى سبيل إخراجهم من بيت المقدس وتحطيم مملكتهم اللاتينية ...

حمل هذا اللواء الظاهر بيبرس الذى تجلت بطولته الحربية فى موقعة المنصورة ولقد والى حملته بعد أن استولى على الملك . وواصل خطة صلاح الدين فى القضاء على الصليبيين واستئصال شأفتهم . ولقد شن عليهم غارات متواصلة وكان يشارك الجنود فى هدم الأسوار مدى عشر سنين . كما عمل على مقاومته الصليبيين فى إماراتهم بغزوات متواصلة على انطاكية وقليقلة وعكا . وأرسل علاء الدين إلى كنيسة الناصرة فهدمها . وجرد جيشا لمدينة عكا فاقتحم

أبوابها وسار بنفسه إليها وحاصرها من جهة البحر سنة ٦٦١ هـ .

وفى سنة ٦٦٦ وجه بيبرس ضربته القاضية الثانية ضد بقايا المملكة اللاتينية فبعد مهاجمة أسوار عكا ظهر فجأة أمام يافا (٧ مارس ١٢٦٨) فانقض عليها من غير ما انذار وتمكن من الاستيلاء على المدينة وتخريبها واتجه إلى شمال سوريا فسار إلى طرابلس وتقدم نحو الشمال إلى حمص وحماه . ثم زحف على انطاكية وهاجمها فى (أول مايو ١٢٦٨ — رمضان ٦٦٦) وسقطت انطاكية بعد حصار دام خمسة أيام .

وقد هزت كارثة انطاكية الصليبيين فطالبت أمارة طرابلس المفاوضة فى الصلح . وكذلك عكا ... ولكنه لم يتوقف فاغار على صور (يوليه ١٢٦٨) ثم كر مرة أخرى على عكا وصور (١٢٦٩) وتهادن مع بيروت وما جاورها . ثم استولى على طرابلس بعد أن استولى على حصن الأكراد . وكان قديرا فى محاصرته فى شعبان ٦٦٩ — وقد بدأ هجومه على حصن عكا (١٧ رمضان ٦٦٩) فطلب أهله الأمان . ثم استعد لمهاجمة طرابلس . وعاد إلى عكا فهدم قلعتها . وبذلك أجلى المماليك بقايا الصليبيين من سوريا ومصر وأخرجوا آخر صليبى عن بلاد الاسلام .

واشترك العلماء والفقهاء فى الحروب الصليبية وذهبوا إلى الميادين ، وذكروا الجند بأمجاد الإسلام ، وحمل بعضهم السلاح وقاتل مع الناس كما فعل ابن شاس فى حصار دمياط فقد اشترك فى القتال حتى استشهد .

وخسر الصليبيون مليون رجل فى سبيل فتح بيت المقدس . وأفادوا كثيرا من اختلاطهم بالمسلمين فقد تعلموا الفروسية وأخذوا من أخلاق العرب كثيراً من مظاهر الشهامة والرجولة والقدرة على الكفاح والجلاد .

وقد وصف الراهب روبرت موقف الصليبيين فى الحملات بقوله « كان قومنا الصليبيون يجوبون — كاللبوات التى خطفت صغارها — الشوارع والميادين وسطوح المنازل ليرووا غليلهم من التقتيل . واتخذوا من الحجج المضللة كانقاذ قبر المسيح تمهله تخفى رغبة الأمراء فى إحراز السلطات والثروات من بلاد الشرق . ولما كانت هذه الظاهرة الروحية هى التى تخلب ألباب البسطاء من المتعصبين فقد اتخذت الصفة الدينية حجابا يستظل به السادة والأمراء فى تحريك الدهماء والطاقة . وشغفت الجماهير بالاندفاع إلى استرداد قبر المسيح وانقاذ فلسطين من قبضة المسلمين » .

زحف التتار على الشرق

يقول ابن الأثير فى وصف زحف التتار على الشرق : « بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها . فأنا أقدم إليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فياليت أمى لم تلدنى ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، إلى أن حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ؛ ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا ... فلو قال قائل : أن أهل العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا . فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا مايدانيها . ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا .

وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل . وقتلوا الأجنه فانا لله وإنا إليه راجعون . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

وقد امتدت هذه الموجة من ٦٣٤ هـ ١٢١٤ م حتى سنة ٨٠٧هـ١٣٨٧م أى أنها ظلت تحطم وتدمر وتزحف مدى مائة وثلاثة وسبعين عاما . وقد توارثها ثلاث رجال أقزام من أبطال الحرب مايزال اسمهم يؤثر فى مجرى التاريخ والبطولة هم : جيكيزخان وهولاكو وتيمورلنك .

فقد ظهر المغول حول نهاية القرن الثانى عشر الميلادى فى الجهات الشمالية

من بلاد الصين وبلاد منغوليا وأواسط آسيا واستولى جيكيزخان على بكين ٦٣٤ واندفع يجتاح امبراطورية خوارزم ووضع يده على بلاد تركستان وفارس وشمالي الهند وكاشغر ثم جاز قزوين ولاهور . وسرعان ما أسلمت له هذه الرقعة الشرقية كلها ومضى فرسانه يوغلون فى الأقطار الاسـلامية فيطوونها تحت سنابك الخيل . وجاء هولاكو حفيد جيكيزخان ، فمضى فى طريقه حتى حطم أسوار بغداد وقتل المستعصم واستباح بغداد فى جيش عدته ٣٠ ألف. وكان التتار فى حربهم مثلا فى الوحشية التى لاحد لها فسفكوا الدماء وفتحوا القبور وأحرقوا بالنار معالم الحضارة وقتلوا الرجال وخطفوا النساء وصنعوا كل صنوف البغى والاستبداد .

واستولى هولاكو على حلب وفتح حصون الاسماعيلية وأخضع أمراء ايران والقوقاز . وهزمه الظاهر بيبرس فى عين جالوت فى رمضان سنة ٦٥٨ وفى هذه المعركة قتل كتبغا قائد التتار .

وظهر تيمورلنك ٧٣٧ هـ . حيث مضى يجتاح العالم الاسـلامى مرة أخرى فدوخ جراجان وخراسان وسجستان وأفغانسـتان ، وفارس وازربيجان . وكردستان والعراق وتربع على عرش سمرقند وبسط سلطانه على المملكة كلها وفتح آسيا الصغرى وبلغ أنقره سنة ٨٠٤ وبعد أن بايعه سلاطين مصر تحول الى الصين فمات فى الطريق عام ٨٠٧ .

وجعل تيمورلنك عاصمة امبراطوريته التترية « سمرقند » .

وانقض بجيوشه على الشام ٨٠٣ — ١٤٠٠ م واستولى على مدينة حلب

حيث شهد أهلها ألوانا من النهب وسفك الدماء . والتقى ابن خلدون بالفاتح التترى تحت أسوار دمشق .

ووقعت معركة (سيواس) أنقرة بين التتار والترك . واصطدم تيمور بالسلطان بايزيد العثمانى فى هضاب أنقرة سنة ٨٠٤ وانتصر تيمور وتسلم أنقرة وبروسه ، ووصل فرسانه إلى ضفة البحر ، وشاقهم منظر قباب القسطنطينية فاستولوا على أزمير . وأسر تيمور بايزيد وسجنه فى قفص من الحديد وغزا تيمور الهند الشمالية وقتل ثمانين ألفا من أهالى دلهى .

ودهشت أوربا حين بلغ التيار هذا المبلغ من الفتح، وامتلكوا أكبر رقعة لامبراطورية ، من حدود الصين إلى البحر الأسود .

* * *

لا شك أن النزاع بين السنة والشيعة فى بغداد كان من العوامل الهامة فى سقوط بغداد . لقد ظل هذا الصراع قائما ، يضطرم ويشتد ويتوالى .

وكان وزير الخليفة المستعصم : مؤيد الدين بن العلقمى من الشيعة ، ذو دهاء ومكر . ويتهمه التاريخ بأنه أسلم بغداد للتتار رغبة فى الانتقام للشيعة مما أصابهم على أيدى الحكام بعد أن فتك رجال المستعصم بهم فكتب إلى هولاكو سراً وأطمعه فى ملك بغداد وأرسل إليه أخاه ليحرضه على الزحف.

والتقى الجيشان ، جيش المستعصم وجيش هولاكو وانهزم الخليفة

فى ٢٠ ألف من جنوده . لقد خدع ابن العلقمى الخليفة وحسّن له الخروج فخرج فى جمع من أصحابه فانزلهم خيمة ، واستدعى الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك سادات بغداد فلما تكامل اجتماعهم أمر هولاكو فقتلهم جميعا وكانوا حوالى ٧٠٠ من القضاة والفقهاء والصوفية والأمراء . ومضى جند هولاكو فاعملوا السيف فى أهل بغداد وهجموا على دار الخلافة وقتلوا وأسروا ودام القتل والسبي أربعين يوما وكانت مجزرة بشرية مروعه ، ودخـــل الناس فى الأبار . وظلت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس والقتلى فى الطرقات كأنها التلول وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صـورهم ، وانتنت من جيفهم البلد وتغير الهواء فحصل يشبه الوباء الشديد . ولما نودى بالأمان خرج الناس من المطامير والمقابر كأنهم الموتى وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى ، وبلغ عدد القتلى ٨٠٠ ألف ووجد فى شوارع بغداد أربعين رضيعا تركتهم أمهاتهم وقد وضع فيهم السيف[1] » وبقيت بغداد فى قبضة التتار ثلاثين عاما حتى سنة ٦٨٦ هـ .

* * *

واندفعت جيوش هولاكو بعد جيكيزخان فى مدى ثلاثين عاما ، تنتقل من ظفر إلى ظفر ، تفتح الممالك وتجتاح الشعوب وتدمر كل شيء . وسارت

---

(١) عبارة ابن الأثير

هذه الجيوش إلى الشام فلم تستطع لها دفعا فاستسلمت حلب بعد شهرين وسارع أهل حماه إلى حلب فسلموا هولاكو مفاتيح المدينة .

ولـكن مصر ، التى جاهدت الصليبيين مائة وستين عاما ، ودحرتهم أبت أن تستسلم للتتار فجمعت كل ما فيها من قوى وخرجت فى ٢٥ رمضان سنه ٦٥٨ وصمدت للقوم فى « عين جالوت » فهزم التتار هزيمة منـكرة .

التقى المصريون بالغزاة فى عين جالوت على مقربة من بيسان . وقتل قائد التتار كتبغا . وانـكسرت منمية المسلمين فى أول الأمر ثم حمل الملك المظفر بنفسه على طائفة من عساكره . حتى تراحم التتار . واقتحم الملك المظفر القتال وباشر ذلك بنفسه وأبلى بلاءاً حسنا حتى نصره الله وانـكسر التتار وظهرت بطولة « بيبرس » فى هذه المعركة . ثم استولى على الملك بعد قطز وطارد المغول حتى نهر الفرات فأجلاهم عن الشرق سنة ١٢٧٣ م .

وكانت هذه المعركة الفاصلة التى انتصرت فيها مصر .

يقول توماس أرنولد : لا يعرف الاسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبا أشد هولا من غزوات المغول فقد انسابت جيوش جيكيزخان انسياب الثلوج من قمم الجبال واكتسحت فى طريقها العواصم الاسـلامية وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة .

... على أن الاسلام لم يلبث أن نهض من تحت انقاض عظمته الأولى • واطلال مجده التالد . واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه . ويرجع الفضل فى ذلك إلى حماس الدعاة من المسلمين الذين كانوا يحاولون احراز قصب السبق فى ذلك المضمار . وليس فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والاسلام ، كل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين الذين داسوا بأقدامهم تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى جميع الأقاليم والأقطار . »

الصراع بين الشرق والغرب

من اليقين الذى لا امتراء فيه أن الشرق والغرب قد التقيا منذ آماد بعيدة فى حساب التاريخ . فقد وصلت بينهما العوامل المختلفة منذ ذلك التاريخ وهم منذ التقيا لم يفترقا ، غير أنهما بالرغم من هذا اللقاء الطويل ، الذى امتد على الزمن منذ سنة ٥٤٦ قبل الميلاد حتى الآن ، أى منذ ٢٥ قرنا من الزمان ، فان أحداً منهما لم يسحق الآخر حتى يأتى عليه ، ولم يصهره فى بوتقته ، ولم يمح ذاتيته وطابعه الخاص .

لم يكن هذا اللقاء سمحاً ولا سلاما . وانما كان لقاء صراع وحرب . لقاء القوى الغالب للضعيف المغلوب .

كانت الجولة أول الأمر للغرب . ثم أصبحت للشرق ، ثم عادت للغرب مرة أخرى . كانت للغرب عند ما وقع الصراع بين الأغريق والفرس ، وبين فينيقية وقرطاجنة ثم كانت للشرق عندما وقع الصراع بين الفرنجة والعرب فى الأندلس . وبين الغرب والدولة الرومانية الشرقية عند القسطنطينية .

وكانت للغرب جولة فى أرض المشرق عندما اصطدم الفرنجه والمسلمون فى فلسطين . ثم زحف الغرب على الشرق فى صور التجارة واستكشاف الشواطىء والموانى . ثم فى صورة الاستعمار .

ومع هذا اللقاء المتصل ، وهذا الصراع الدائم ، الذى استمر خلال هذا الزمن الطويل فقد ظل الشرق قويا يحتفظ بطابعه ومظاهره . هذا الطابع القوى

النقى ، الذى لم تغيره أعاصير الحضارات . ولم تفقده شيئا من قوته زحوف المغيرين ، بل على العكس من ذلك أمدته بقوة جديدة .

لقد أفاد الشرق من كل الحضارات والبعثات والزحوف التى اتصلت به . وكان الشرق رغم هذا كله كريما فى اتصالاته مع الغرب ، كان فى كل تصرفاته مثلا عاليا للوفاء . فقد أثر عن صلاح الدين أنه عامل الفرنجه أكرم معاملة . وضرب المثل فى النبل والتسامح . وكانت مواقفه معهم غاية فى القوة والجلال . كما كانت مواقفه مع ملوك أوربا فى فلسطين وكذلك موقف المصريين مع لويس وأتباعه فى المنصورة .

* * *

ولا شك أن الشرق والغرب — كلاهما — أفاد من هذا الاتصال أو هذا الصراع ، فقد نقل كلا منهما — وهو ضعيف — حضارة الآخر وهو قوى . ونقل ثقافته وأدبه وفنه . ونقل حضارته وعلمه .

وكانت الحضارة الانسانية العالمية بينهما أمانة يحملها القوى ثم يسلمها إلى الآخر عند ما يضعف عن أداء حقها . بزغ نجمها الأول فى مصر ثم ظل ينتقل بين فارس والأغريق والرومان والعرب .

وكان الشرق صاحب الحظ الأوفى فى حمل أمانة الحضارة . فقد استوطنته الحضارات الفرعونية والحيثية والفارسية والعربية .

* * *

كان أول صراع بين الشرق والغرب ، هو الصدام بين الفرس والأغريق . فقد التقيا فى آسيا الصغرى سنة ٥٤٦ ق . م عندما أراد قبيز أن يوسع دولته بضم فينقيا وقبرص ومصر . ثم غزا داراً الفارسى تراقيا فى شبه جزيرة البلقان سنة ٥١٣ ق . م . ثم ثارت المدن الأغريقية فى وجه الفرس سنة ٥٠٠ ق م . وظل الموقف متحرجا بين الفرس والأغريق إلى سنة ٤٨٠ ق . م حيث تحطم الأسطول الفرسى وانتصر الأغريق ثم انشأ الاسكندر امبراطوريته ، بعد أن عبر مضيقى بيزنطة (البسفور والدردنيل) ٣٣٦ ق م ، وهزم الجيش الفارسى فى موقعة جرانيكوس ، ثم غزا فارس فالشام حتى وصل إلى مدينة أسوس على شاطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقى الشمالى . ودخل مصر سنة ٣٣٣ ق . م . ودخل معبد آمون وأنشأ الاسكندرية ، واستولى على صور . وهزم الفرس أو اقتحم عاصمتهم (سيس) ثم اخترق أفغانستان وتركستان وعبر مضيق هملايا فى الهند وضم البنجاب . وهو أول من سعى إلى توحيد الشرق والغرب ونشر الحضارة اليونانية فى الشرق . ومزج العناصر الشرقية والغربية .

ثم ارتبطت مصر بروما فترة طويلة منذ أيام البطالسة وبعدها حتى أصبحت ولاية رومانية بعد واقعة اكتيوم سنة ٣١ قبل الميلاد .

* * *

وقام الصراع بين الشرق والغرب كرة أخرى حين اشتبكت روما وقرطاجنة وكان للأخيرة أسطولاً عظيما فى البحر الأبيض يسيطر على الطريق من جزيرة صقلية إلى مجاز جبل طارق .

وقد أسس الفينقيون قرطاجنة فى القرن التاسع قبل الميلاد . واستمرت هذه الحروب من سنة ٢٦٤ إلى ١٤٦ ق. م ، وانتهت بأن أحرق الرومان قرطاجنة وبدأت سيادتهم على المغرب .

وفتح بومبي بين سنة ٧٩ و ٦٩ قبل الميلاد سوريا وأورشليم فى عهد يوليوس قيصر ، واحتل الرومان دمشق ، وظلت مصر تابعة لروما حتى جاء العرب .

* * *

ومن الشرق بزغت المسيحية . ووصلت إلى روما . وكانت مصدر الخلاف بين المسيحيين والوثنيين بها سنة ٣٨ ميلادية . واتصلت الحرب مرة أخرى بين الفرس والرومان سنة ٥٧١ م

* * *

وبعد أن بزغ ضياء الاسلام تجدد الاتصال بين الشرق والغرب .

عندما حاصر العرب القسطنطينية ظلوا يوالون حصارها بالشواتى والصوائف سبعة أعوام متوالية . وبدأت أول محاولة فى عهد معاوية الحاكم سنة ٣٢ هـ ثم فى عهد معاوية الخليفة . وامتدت المحاولات إلى أيام الرشيد بعد اختراق هضاب الأناضول . وقد ظلت محاولات آسيا الصغرى تتوالى حتى تم ذلك فى عهد الخليفة محمد الفاتح وفتح العرب اقريطش وجنوب ايطاليا . ودخلوا رومه .

وفتح أسد بن الفرات صقلية سنة ٧٢٨ .

ونجدد الصراع فى صورة أخرى عن طريق أسبانيا بعد أن جازتها جيوش العرب من شمال أفريقيا وافتتحت مملكة القوط النصرانية واقتحمت جبال البرانس .

وكان موسى بن نصير يرجو أن يخترق أوربا من المغرب إلى المشرق ، وأن يصل إلى دمشق عن طريق القسطنطينية .

وظل العرب يواصلون الزحف حتى قلب أوربا حتى هزموا فى موقعة (تور) أو بواتيه فى سهول فرنسا على ضفاف نهر اللوار سنة ٧٣٢ . وقتل عبد الرحمن الغافقى أول جندى عربى عبر البرنيه . وكانت هزيمة العرب بخدعة من جانب الفرنجة .

وغزا الاسلام روما مرتين وفيها ضربوا الحصار على مدينة القياصرة ، وفى المرة الثانية حصلوا على جزية قدرها ٢٥ ألف مثقال من الذهب .

وفى خلال هذه الفترة اتصل الشرق بالغرب على صورة صداقة ومودة ، عند ما أرسل هارون الرشيد إلى شارلمان سفراءه وهداياه . وقددارت بينهما مكاتبات لتوطيد الصداقة التى كان من أبرز معالمها هدية الرشيد : الساعة المائية ومفاتيح قبر المسيح وذلك فى سنه ٧٨٦ م .

* * *

ووصل السلاجقة حكام الامبراطورية الاسلامية فى ١٠٧١ م إلى ذروة

المجد ، فأزعج ذلك أوربا . وكان سببا فى أن يرتطم الشرق والغرب فى حملات صليبية تسع .

بدأت الحملة الأولى سنة ١٩٠٨ حيث استولى جودفرى على بيت المقدس ثم اندفعت الجيوش الصليبية القادمة من قلب أوربا على الشرق. وتوالت . واتجهت الحملة الخامسة والسابعة إلى مصر .

واستغرق هذا الصراع قرنا ونصف قرن . وخسر الغربيون فيه مليون رجل واستفادوا من الشرق كثيرا ونقلوا معهم العلوم والفنون ، وتعلموا الفروسية وركوب الخيل . ولولا هذه الحملات لأمكن للسلاجقة — وهم على ما كانوا عليه من قوة — من مهاجمة أوربا وإتمام مشروع موسى بن نصير .

وأرسلت الحملة الثامنة إلى تونس بقيادة القديس لويس سنة ١٢٧٠ .

وفى خلال تاريخ الامبراطورية الإسلامية اتصـل الشرق بالغرب على أكثر من صورة . فقد خرج عبد الرحمن الداخل الأموى « صقر قريش » مهاجراً من المشرق حتى وصل المغرب ، وقطع نجاد أفريقيا وصحراء المغرب حتى دخل الأندلس فأقام دولة كبرى .

وسمع المعتصم بقصة العربية التى لطمها سيدها فى عمورية ، وقد نادت « وامعتصماه » فقال لها لبيك ... لبيك . وخرج فى أثنى عشر ألف فرس أبلق ، فوصل إليها على حدود الروم فى زمهرير الشتاء فاقتحم أسوارها .

ووقف عقبة بن نافع على شاطىء الأطلسى . ودفع بفرسه فى المحيط

وقال : والله لو أعلم أن وراءك أرضا لذهبت إليها غازيا فى سبيل الله .

* * *

ثم اتصل الشرق بالغرب ، عند ما زحف العثمانيون على الدولة الرومانية الشرقية فاستولوا على ادرنة فالقسطنطينية سنة ١٣٥٣ .

ثم عبروا البحر إلى أوربا ، وامتدت ممتلكاتهم من بحر ايجه إلى نهر الطونه . فشملت بلغاريا ومقدونيا وتراقيا . ثم وصلوا سنة ١٤٥١ إلى بحر الادرياتيك ، وفى عهد محمد الثانى استولوا على البانيا والبوسنه والصرب .

وفى سنه ١٥٦٦ فى عهد سليمان القانونى وصلوا إلى بلاد المجر وأصبح بحر ايجه بحيرة عثمانية . وفى سنة ١٦٦٧ حاصروا أسوارفينا . وكانت معركة سان جوتارد نهاية الموجه من الشرق . كما كانت معركة بلاط الشهداء نهاية الموجة من الغرب .

ثم بلغت تركيا أوجها سنة ١٨٧٦ . وأصبحت الدولة الثانية فى البحر واستطاع الغرب أن يبدأ مرحلة جديدة حين أرغم سليمان القانونى على فرض الامتيازات ثم وقعت الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ .

* * *

ثم وقع الخلاف بين الشرق والغرب مرة أخرى ، واصطدما فى الطرف الثانى من الأندلس .

كانت أوربا المسيحية تجلى المسلمين على الأندلس ، ويقيم لهم محاكم التفتيش منذ عام ١٤٩٠ عند ما تزوج فرديناند وأزبيلا ، وأدمجا مملكتيهما وظل يمتد فى عسف وظلم وأعنات إلى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ وإلى صدور مرسوم القيصر سنة ١٥٢٠ بتنصير المسلمين وإلى آخر عهد المسلمين بالأندلس سنة ١٦١٠ .

***

وبدأ الصراع فى سبيل الاستيلاء على تركة «الرجل المريض» حين وقع الخلاف بين روسيا وفرنسا سنة ١٨٥٢ بشأن الأماكن المقدسة فى فلسطين . فقد كانت فرنسا ترى نفسها حامية الكاثوليك فى الشرق .

وقد كانت حرب القرم فى رأى بعض المؤرخين نتيجة للخلاف بين الكاثوليك والأرثوذكس على الأماكن المقدسة .

وفى سنة ١٨٦٠ أرسلت فرنسا جيشا إلى الشام بحجة مساعدة الدولة العلية على قمع الفتنة التى وقعت بين المارونيين والدروز .

وامتد الصدام حين أخذت ايطاليا وفرنسا وانجلترا ، تنتقص من أطراف الدولة حتى أطلق على حرب البلقان سنة ١٩١٢ الحلف المقدس .

وأخذ الصراع صورة واضحة عندما زحفت إلى مصر الحملة الفرنسية بقيادة « نابليون » سنة ١٧٩٨ التى كانت مقدمة لغزو واسع النطاق للشرق .

وكان نابليون يرمى إلى تنفيذ مشروع واسع النطاق لإقامة امبراطورية شرقية فرنسية ، غير أن صمود عكا التى امتنعت عليه قد حطم حلمه فعاد إدراجه مهزوما .

ثم أخذ محمد على يعمل على إقامة دولة عربية موحدة سنة ١٨٠٠ تضم الأقطار الممتدة من الجزائر حتى دبار بكر وخليج فارس شرقاً . ومن جبال طورودس شمالا حتى أواسط أفريقيا . ولقد قاوم الغرب هذا المشروع فى عنف.

واتصل الشرق بالغرب عند ما أرسل محمد على أسطوله لإخماد ثورة اليونان سنة ١٨٢١ وأرسلت انجلترا وفرنسا وروسيا أساطيلها إلى الساحل اليونانى حيث استطاعت أن تحطم الأسطول المصرى الشرقى فى موقعة « نفارين » .

وانقض الغرب على الشرق فى صورة استعمار سافر فاستولت فرنسا وايطاليا وانجلترا على ساحل البحر الأبيض كله مصر والمغرب وليبيا والشام.

وانقضت انجلترا على ساحل الخليج الفارسى وما وراءه فاستولت على سواحل الجزيرة العربية والهند .

* * *

وبدأ عهد جديد من الصراع لا يزال قائما .

لمن تكون الغلبه فيه .

للشرق أم للغرب ؟ .

موقف الغرب من الإسلام

وقف الغرب من الإسلام منذ اليوم الأول موقف الخصومة العنيدة . فقد كانت غاية الغرب الكبرى هى تحطيم هذه القوة العاتية . وتمزيق هذه الامبراطورية التى عاشت تحت ظلال « الاسلام » .

عند ما دخل المسلمون أسبانيا تركوا لأهلها حرية دينهم وشعائرهم وحكامهم . وسهلوا لهم الوصول إلى المناصب الرفيعة فى قصور الخلفاء . وهجر اليهود أوربا على أثر الاضطهاد الذى وقع عليهم ، إلى الأندلس ليحتموا بعدالة العرب .

أما الغرب فانه عندما عاد إلى الأندلس بعد ثمانية قرون لم يبادل المسلمين حسن جوارهم ، بل ائتمر بهم واستباحهم قتلا وتشريدا وتمثيلا وأحرقوا مكتبة العرب فى غرناطه وقرطبة .

وارتكب الغرب فظائع لأحد لها حين حرم على المسلمين حرية العبادة . وأجبرهم على اعتناق المسيحية . ومن ثم ارتدت الألوف المؤلفة عن دينها وهاجرت جموع أخرى إلى ثغور أفريقيا وكانوا حوالى نصف مليون .

لم يستقر العرب فى الأندلس إلا فترة قليلة فى حساب التاريخ من سنة ٩٣ هـ إلى ٣٩٠ آخر أيام المنصور ابن أبى عامر . ثم بدأ الصراع مرة أخرى بين العرب والفرنجه . وتقدم المرابطون مرة والملثمون مرة ... لانقاذ الاندلس .

وانتهى الصراع بأن سلمت غرناطة .

وبدأ دور ديوان التفتيش ...

وما زالت كنيسة الحمراء حتى اليوم تقرع نواقيسها أربعا وعشرين ساعة قرعا متداركا فى ثانى يناير من كل عام ابتهاجا بجلاء المسلمين عن الأندلس .

وهذه عبارة دوزى[1] « بيد أن المسيحيين لم يبادلوا العرب حسن جوارهم فما أن أتيح لهم العودة إلى الحكم بعد ثمانية قرون حتى ائتمروا بالعرب . وكانوا ينتظرون الوقيعة بهم . واستباحوهم قتلا وتشريدا وتمثيلا عدا من فتن عن دينه » .

ويقدر ليورنتى عدد من نفى بألف ألف نسمة ويقدره غيره بستمائة ألف وثالث بتسعمائة ألف عدا من استرق منهم أو قضى نحبه تعذيبا وحرقا وعددهم يصعب تقديره .

ويقول ليورنتى وهو أمين سر ديوان التفتيش الإسبانى الأعلى « لقد أتيت على كثير من القضايا قراءة وتلاوة فتولانى الرعب وملأنى الاشمئزاز المصحوب بالرجفة والخوف . ولم أر من رجال التفتيش الذين لجأوا إلى أمثال تلك السبل إلا رجالاً قد انتهى جودهم حتى غاية البربرية » .

وأحرق الراهب كونيتس ٨٠ ألف مجلد من الكتب الإسلامية

(1) L'eslam de castric

ويقول ف بارتولد «أن النصارى الذين عاشوا فى حكم المسلمين لم يصبهم قط ما أصاب المسلمين فى أسبانيا من الظلم والعدوان . »

* * *

وليست قصة الأندلس إلا تكريراً لقصة الحروب الصليبية التى شنها بطرس الناسك على العالم الإسلامى والتى استمرت نيفا ومائتين من الأعوام .

فى ١٠٩٩ وقف جيش الفرنجة المؤلف من أربعين ألفا على أبواب بيت المقدس . ثم هاجم المدينة بعد أن استعصت عليه شهراً كاملا ، وأعمل السيف فى رجالها ونسائها وأطفالها دون تمييز ، وشوهدت أكوام الرؤوس والأيدى والأرجل فى شوارع المدينة .

وبعث قائد الصليبيين إلى البابا بعبارته المشهورة « أن خيولنا كانت تخوض إلى ركبها فى بحر من دماء المسلمين فى إيوان سليمان ومعبده .

ولم يقف الأمر عند هذا بل اشترك ملوك أوربا فى الحملات المتتالية فقدم إلى بيت المقدس فردريك ملك بروسيا وريتشارد قلب الاسد وفيليب أوغسطس ، الذين أسرهم صلاح الدين وعاملهم أحسن معاملة ثم أطلقهم بعد أن أخذ عليهم العهد ألا يعودوا لقتال المسلمين . ولكنهم نكثوا بالعهد .

واشترك لويس السادس عشر فى حملة دمياط ١٢٤٩ وكان ينقب

بالقديس وأسرهم وزملائهم النبلاء . وعاد إلى أوربا ليشترك فى حملة صليبية أخرى على تونس سنة ١٢٧٠ .

وفى الوقت الذى كان البابا أورمانيوس الثانى فى مجتمع كليرمون سنة ١٠٩٥ يرمى رسول الإسلام بأقذع العبارات كان المسلمون فى بيت المقدس يذكرون رسول المسيحية بأروع التعبير والتكريم .

وقد بلغ الإسلام فى موقفه مع أوربا غاية السماحة . حينما أرسل هارون الرشيد سنة ٨١٠ مفاتيح بيت المقدس إلى شارلمان وأذن له باتخاذ ما يلزم من وسائل لراحة الحجاج المسيحيين . وكانت قوافلهم ترد عاما بعد عام فلا تلقى إلا كل رعاية وتقدير .

وتعد الحروب الصليبية فى نظر المؤرخين المنصفين سبة فى تاريخ أوربا ودليلا أكيداً على تعصبها فضلا عن أنها كانت غاية الفوضى من الناحية الحربية والعسكرية .

وترجع أسباب هذه الحروب إلى أن أوربا أحست بالشرق وقد وصل إلى أوج القوة فخشيت أن يزحف المسلمون إلى أوربا فأرادت أن تنهك قواه وتحطم كفايته الحربية .

غير أن الغربيين وجدوا من المسلمين روحا عالية فى التسامح وحسن المعاملة من الحروب الصليبيه وأخذ الغرب من الشرق فن الفروسية وبناء الحصون وحفر الخنادق وإقامة الاستحكامات .

وكانت الإمارات التى أنشأها الصليبيون فى القدس والكرك وطرابلس والنصيرية نواة للمستعمرات الأوربية فى الشرق ، بل فاتحة التوسع الاستعمارى .

* * *

ويتصل بهذا حملة أخرى شنتها أوربا على الشرق هى حملة التبشير .

وارتبط الاستشراق بالحملات الصليبية . وتعتبر هذه الحملات فى نظر بعض المؤرخين نتيجة لبحوث المستشرقين .

وقد ترجم المستشرقون القرآن وفلسفات ابن سينا والغزالى والفارابى . وألف ليلة . وكان المستشرقون الأول رهبان . وقد كان يهمهم بصفة واضحة أن ينشروا كتب الصوفية خاصة ما كان منها مغاليا كالدروزية والناصرية والاسماعيلية ولم تكن دراسات المستشرقين خالصة لوجه العلم . إذ كان من أسوأ مظاهرها الخلط والعجز عن الفهم والحرص على الشبهات والحدس والتخمينات والروايات الضعيفة والحرص على تصوير المسلمين فى صور النقص والخلاف والفرقة .

وعرف كبار المستشرقين بالتعصب أمثال مرجليوث وستانلى ونولدكه .

* * *

وعندما ذهبت البعثات التبشيرية إلى بلاد المغول كانت تطمع فى أن

تحقق من وراء رحلتها استعادة بيت القدس . وكان من بين أعضائها أفراد مثل رانميد كل ممن يؤمنون بأن تنصير أسيا غاية قائمة بنفسها . فباسم التبشير سارت الحملة الحربية ، وسار التاجر فى ظل البعثة العسكرية .

وقصدت أوربا من حملاتها أن تستولى على هذه المناطق لتحصر الإسلام بينها وبين أوربا . فيصبح عقيدة متضائلة محصورة فى فئة قليلة من الناس .

يقول باركر « أن الملاحين الذين سافروا إلى الشرق كانوا يحملون الصليب على صدورهم ، وقد اعتقدوا أنهم برحلتهم إلى بحار الهند يعملون لتخليص الأراضى المقدسة . وإذا كان كولومبس قد وجد الجزائر الكاريبيه بدلا من الهند فإنه يمكننا أن نقول أن المسيحيين الذين قاموا بهذا العمل — أى الالتفاف حول الشرق ومهاجمته من بحار الجنوب — قد كسبوا قارة للمسيحيين » .

* * *

ونشطت حركة التبشير فى الشرق فى مفتتح القرن العشرين وانتشرت أرسالياتها وعملها فى القرون الوسطى فى الهند وجزائر السند وجاوه .

وكانت كلها ترمى إلى مقاومة انتشار الإسلام وإيقاف تطوره .

وأقام المبشرون فى الشرق الإرساليات والجامعات والمدارس الدينية

واعتمدت الجهات الغربية المشرفة على هذه الحملات مبالغ ضخمة بلغت ١٥٤ مليون فرنك فى العام الواحد .

وكانت حملات زويمر التبشيرية الضخمة منذ سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩٣٢ .

ومن حديث مسيو شاتليه أحد زعماء الدعوة المنصرية فى فرنسا ١٩١٠ قوله « ينبغى لفرنسا أن يكون عملها فى الشرق مبنيا قبل كل شىء على قواعد التربية العملية . ويجب ألا يقتصر على المشروعات الخاصة التى يقوم بها الرهبان المبشرون . بل على التعلم تحت لواء الجامعات الفرنسية .

وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم إلى حيز الفعل ليبث فى دين الإسلام التعاليم المتحدة من المدرسة الجامعة الفرنساوية » .

وفى تقرير للمستر بلس من كتاب الغارة على العالم الإسلامى « إن الدين الإسلامى هو العقبة القائمة فى طريق تقدم التبشير بالنصرانية فى أفريقية . والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا ، لأن انتشار الإنجيل لا يجد معارضا لا من جهل السكان ولا من وثنيتهم ولا من مناضلة الأمم المسيحية وغير المسيحية .

وليس خصمنا هو العربى الذى يرتاد البلاد للتجارة ، بل إن هذا الخصم المعارض هو الشيخ أو الدرويش صاحب النفوذ فى أفريقيا أكثر مما هو كذلك فى فارس .

ويصف زويمر زعيم المبشرين فى تقرير له كتبه ١٩١١ نتائج الحملات التبشيرية فيقول « أن حظ المبشرين من التغيير الذى أخذ يدخل على عقائد الإسلام ومبادئه الخلقيه فى البلاد العثمانية ومصر وجهات أخرى هو أكثر بكثير من حظ الحضارة الغربية منه .

ولا شك فى أن الارساليات التبشيرية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية فى نفوس منتحليها ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية بتحكك الاسلام بصحف أوربا وبتمهيد السبل لتقدم إسلامى مادى . وتقضى إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التى لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها » .

ومعنى هذا أن الغرب إنما قصد بالاستشراق وبهذه الحملات التبشيرية إلى القضاء على الإسلام وزلزلته من النفوس وسحق هذه العقيدة بكل الوسائل العلمية والمادية التى يراها تؤدى إلى ذلك .

وقد ثبت للقائمين على هذا العمل بعد أن أمضوا أكثر من عشرين عاما أن تجربتهم فاشلة . وأن الإسلام راسخ فى نفوس أصحابه لا تستطيع قوة أن تزعزعه . هذا بينما ظل الإسلام يشق فى طريقه ويحقق انتصارات جديدة فى المناطق التى لم تعرف الأديان .

ويقول مؤلف الإسلام على مفترق الطرق « إن المستشرقين الأول كانوا مبشرين نصارى يعملون فى البلاد الاسلامية . وكانت الصورة المشوهة التى اصطنعوها فى تعاليم الاسلام وتاريخه مدبره على أساس يضمن التأثير فى موقف الأوربيين من الوثنيين .

غير أن علوم الاستشراق تحررت بعد ذلك من نفوذ التبشير ومع ذلك بقى هذا الالتواء العقلى قائما ».

وبقيت هذه المعانى قائمة فى ضمير الغرب فإن اللورد اللنبى حينما استولى على بيت القدس فى أواخر الحرب الماضية وقف عند هيكل سليمان وقال « اليوم انتهت الحروب الصليبية » وعقب على هذا الدكتور بترسون سميث فى كتابه عن سيرة المسيح بقوله « أنها كانت حربا صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها » .

من هذه الوقائع التاريخية الواضحة نعرف موقف الغرب من الاسلام. الغرب الذى أدّعى أنه قضى على التعصب الدينى وأشارع روح التسامح بين النـاس بينما لا يزال هذا التعصب يأخذ أعنف صورة إذا واجه الاسلام .

والحق أن فلسفة ديكارت وحرية الفـكر وغير ذلك من المذاهب العلمية لم تستطيع أن تصرف أوربا عن الخصومة الـكامنة فى أعماقها للاسلام والشرق .

يقول بلنت فى كتابه مستقبل الإسلام « إن مركز الخلافة الاسلامية يجب أن يكون كله فى أيدينا . وإن الخليفة فى المستقبل يجب أن يكون رئيساً دينيا لا ملـكا دستوريا . وإن خليفة كهذا يكون محتاجا إلى حليف ينصره ويساعده » .

وبينما لا تؤمن أوربا بالمسيحية إيمانا فعليا ولا تمارسها ، وقد انصرف

الرجل الأوربى المثقف عنها ولم يعد يذهب إلى الكنيسة فان أوربا مازالت تتمسك بالمسيحية فى الشرق فى صورة التعصب ضد نفوذ الاسلام .

لقد جعلت أوربا « قبر المسيح » هو نقطة البدء فى استعمارها للشرق. وجعلت الكنيسة هى المركز الأولى الذى اصطنعه الاستعمار للنفاذ إلى البلاد كما اتخذت من حماية الأقليات وما سوى ذلك من عبارات تتصل بالمسيحية كملة للتدخل فى شئون البلاد الاسلاميه وفرض سلطانها عليها .

ويبدو معنى الصراع الطائفى واضحا فى كل مواقف الغرب من الشرق . فى حرب الطليان للمسلمين فى ليبيا ، وسحق الفرنسيين للمسلمين فى تونس والجزائر ومراكش .

ويقول مؤلف كتاب « معركة الاسلام » .

« إن الحروب الصليبية لم تضع أوزارها إلا فى نفوس المسلمين وفى عالم المسلمين . أما فى العالم المسيحى فهى مشبوبه الأوار وهى تشغل من أذهان القوم مكانا بارزاً يبدو فى شتى مناحى الحياة » .

والواقع أن الغرب لا يضيق بشىء كما يضيق باسم الاسلام ويمتلىء بالحقد على الدعاة باسمه وحملة دعوته .

ومن قبل وقف « غلادستون » سنة ١٨٧٠ على منبر البرلمان البريطانى وأمسك بالمصحف وقال « مادام هذا الكتاب باقيا فى الأرض فلا أمل لنا فى إخضاع المسلمين » .

وقد صدق ، فان كل هذه المحاولات الاستعمارية باءت بالفشل وبقى الاسلام قويا .

وتبعا لهذه السياسة وقف الغرب فى وجه كل من دعا إلى الاسلام . وحمل إسمه أمثال جمال الدين الأفغانى والكواكبى وجاويش وعمر مكرم .

وحمل الغرب المسلمين على الصراع حتى لا يتجمعوا وقد أثار الخصومة بين العرب والأتراك وكسب هو من وراء ذلك احتلال البلاد التى استخلصها العرب من أيدى الترك سنة ١٩١٤ .

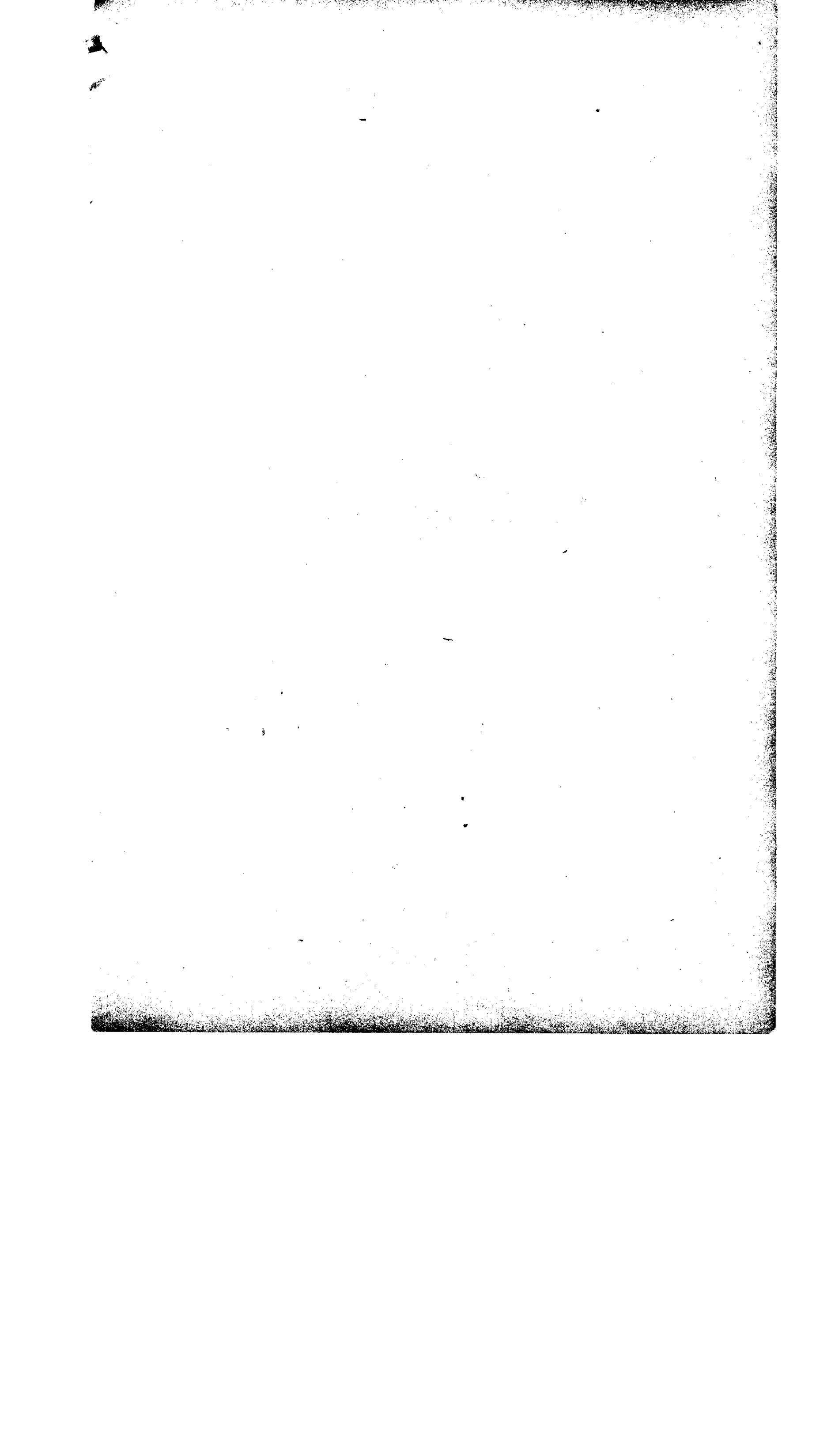
والغرب هو الذى أثار الخلافات المتعددة بين السنة والشيعة وبين البربر والعرب .

وليست مواقف الغرب من كفاح بلاد العالم الاسلامى فى سبيل التحرير إلا صوراً لهذا الصراع .

ميسلون والثورة العرابية وثورة العراق . والظهير البربرى فى مراكش واتفاقيات ١٨٩٩ و١٩٣٦ وتصريح بلفور واحتلال اليهود لفسطين العربية .

كل هذه مظاهر لفكرة واحدة هى محاولة لتحطيم قوة العالم الاسلامى .

الاسلام والحضارة



« اتق الله ، دعها فليقولها لى ، لاخير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم » .

« لو ماتت شاه بشاطىء الفرات لظننت أن الله عز وجل سائلى عنها يوم القيامة » .

« أصابت إمرأه وأخطأ عمر » .

« وليت عليكم ولست بخيركم ، إن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . الضعيف عندى قوى حتى آخذ الحق له ، والقوى عندى ضعيف حتى أخذ الحق منه . أطيعونى ماأطعت الله فيكم . فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

« أحب من الرجل إذا سيم الخسف أن يقول « لا » بملء فيه » .

« أتشفع فى حد من حدود الله ، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

« لا فضل لأبيض على أسود . ولا عربى على أعجمى إلا بالتقوى » .

« لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام » .

* * *

على أساس من هذه القواعد انتصر الاسلام . فحطم الارستقراطية والطغيان وسوى بين الطبقات والناس .

يقول « عبد الرحمن الكواكبي » فى كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد . .

« لقد جاء الاسلام فهدم الاستبداد فى جميع صوره ، وهدم فيما هدم الاستبداد الدينى ، فهو لا يعترف بنظام كهنوتى ، يتحكم أصحابه فى حريات الناس وحقوقهم ، وهو لا يقر الاعتراف أو غيره من النظم التى تجعل الانسان يلتجىء إلى غير الله وحده . وهدم الاسلام الاستبداد السياسى ، لأنه أتى محكما لقواعد الحرية السياسية .

لقد استوعب الخلفاء الراشدون معنى القرآن وعملوا به واتخذوه إماما فأنشأوا حكومة قضت بالتساوى بينهم وبين فقراء الأمة . فى نعيم الحياة وفى شظفها . وقووا فى المسلمين عواطف الأخوة وأوثقوا روابط الاجتماع والتضامن » .

ويقول الشيخ محمد عزيز الخانجى قاضى قضاة دمشق « . . ليس فى الاسلام نظام شبيه بنظام الكهنوت يتحتم معه عزل رجل الدين عن الحياة العامة . ولذلك ساهم رجل الدين الاسلامى فى كل حركة سياسية أو إصلاحية عادت على وطنه بالنفع . وكان رجل الدين أقرب الناس إلى الجماهير ، وأكثرهم اتصالا بالرأى العام وكانت مشورته السياسية ذات قيمة لا تنكر ، وآراؤه صدى لما يدور فى نفوس الشعب ، ومرآة تنعكس عليها آماله وأمانيه . . »

وهذه مزية الإسلام الذى جمع بين الدين والسياسة كوحدة لا تنفصم يقول أحد الأئمة « .. قلما تجد انسانا يتحدث إليك عن السياسة والإسلام ، إلا وشهدته يفصل بينهما ، ويضع كل واحد من المعنيين فى جانب فهما عند الناس لا يلتقيان ولا يجتمعان ولقد حاول غير المسلمين أن يحصروا الإسلام فى دائرة ضيقة تذهب بكل ما فيه من نواح قوية عملية . وإن تركت للمسلمين بعد ذلك قشوراً من الأشكال والمظهريات . فافهموا المسلمين أن الإسلام شىء والاجتماع شىء آخر ، وأن الإسلام شىء والقانون شىء غيره .

... وإذا كان الإسلام شيئا غير السياسة وغير الاجتماع وغير الاقتصاد وغير القانون وغير الثقافة ، فما هو إذن . أهو هذه الركعات ، أم هذه الألفاظ ...

... إن الإسلام عقيدة ووطن وجنسية وسياسة وقوة وخلق ومادة وثقافة وقانون وعقيدة ... »

* * *

بهذه الروح من القوة والبساطة والسلامة . غلبت القلة المؤمنة ، الكثرة الهائلة من خصومها . فى بدر ، وفى حروب الرومان ، وفى الأندلس . كان المسلم يحارب وهو مصمم على أن يموت . بل ويحرق مراكبه على الشاطىء إيمانا منه بأنه لن يعود إليه مهزوما .

وجاء الإسلام حضارة كاملة ونظاما جامعا ، استطاع أن يمد بلاد الشرق بكل مقومات الدول وأساليب السياسة والحياة والتشريع .

* * *

يقول ليوبولد فايس « أن الإسلام لا يقسم حياة الفرد إلى قسمين اثنين . قسم للحياة الروحية والأخرى للحياة المادية . بل إن هاتين الحياتين فى الإسلام تكونان كلا متسقا . فالإسلام لا ينظم علاقة الفرد بربه فقط . ويهمل علاقة الفرد بالفرد أو الفرد بالمجموع والإسلام يدفعنا إلى الكمال ويعلن أنه ممكن فى الحياة الدنيوية ، فلا نؤجله إلى ما بعد أقامه شهوات الجسد ، ولا هو يعدنا لسلسلة متلاحقة الحلقات من تناسخ الأرواح على مراتب متداركة كما تفعل الهندوكية ولا يوافق البوزية التى تقول بأن الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية . والإسلام لا ينظر إلى الانسان كأنه ملوث بالخطيئة منذ ولادته بحكم وراثته لأبيه أدم كما تقول المسيحية ولا يعتبر الحياة الانسانية مدنسة . . ... »

* * *

وليس شك أن الاسلام قد ارتطم فى تاريخه الطويل بالكثير من الدعوات والقوى المزلزلة المدمرة ، ومع ذلك فقد ثبت وصمد ، واستطاع أن يمضى فى طريقه . وهو اليوم القوة الوحيدة الصامدة أمام الخطرين الداهمين اللذين يهددان العالم، خطر الشيوعية والمادية الاستعمارية .

والاسلام ، منذ بزغت أضوائه يشارك مشاركة فعالة فى القوة العالمية ويؤثر فيها ، بحيث لا يمكن أن يكون حادث واحد مما وقع فى العالم منذ ذلك التاريخ ليس ذا صلة بالاسلام أو المسلمين .

وهو الآن السناد الروحى الوحيد الذى يمكن أن تلتمسه الحضارة المادية إذا أرادت أن تبقى وتستمر .

* * *

ويصور الأستاذ أحمد حسن الزيات « المسلم » فى أنه « يوحد بالله ولا يشرك به أحداً من خلقه ويقدس جميع الشرائع التى أنزلهـا الله ، ولا يفرق بين أحد من رسله ، ويوفق بين الناس كافة فى الروح والعقيدة ، لا فى الجنس والوطن . ويسوى بين الأخوة أجمعين ، فى الحقوق والواجبات ، فلا يميز طبقة على طبقة . ولا جنسا على جنس ، ولا لونا على لون . ويجعل للفقير حقا معلوما فى مال الغنى يؤديه إليه طوعا أو كرها . فيستقيم ميزان العدالة فى المجتمع ويجعل الحكم شورى بين ذوى الرأى فلا يحكم بأمره باغ ولا يصر على غية مستبد ، ويحرر العقل والنفس والروح ، فلا يقيد النظر ولا يحصر الفكر ، ولا يقبل التقليد ، ولا يرضى العبودية ، ويأمر معتقديه بالأقساط والبر لمن خالفوهم فى الدين وعارضوهم فى الرأى ، ويوحد الدين والدنيا ليجعل للضمير السلطان القاهر فى المعاملة وللايمان الأثر الفعال فى السلوك ... »

ولقد كان لتماسك الإسلام وقوته وربطه بين الدين والساسه أبعد الأثر

فى تجنب الحروب الدينية التى كان مصدرها فى الأديان الأخرى تسلط الكهنة وحال دون استغلالها للدين كأداة لتحقيق مطامع الحكام .

وألغى الإسلام الوساطة بين الله والعباد .

ودعا الحكام إلى أن يستمدوا وجودهم وحقهم من الأمة مصدر السلطات . كما نص على الشورى والحرية والمساواة والتسامح والبر والتكافل والموازنة بين حقوق الفقراء والأغنياء ومحا الإسلام الجنسيات القبلية المختلفة وتمكن من إدماجها ومهد بهذا لأنشاء الحكومة الانسانية العالمية .

وتتمثل عظمة الاسلام فى مظهرين واضحين هما : البطولة والقوة .

قامت البطولة الاسلامية على قواعد من الأخلاق القرآنية . هذه الأخلاق التى جاءت بالأعاجيب حين اندفع المسلمون يفتحون الممالك . وينشرون الاسلام .

يقف أبو بكر موقف الحزم إزاء الردة ويعارضه جل الصحابة ، ومن بينهم عمر نفسه . فيظل مقيما على رأيه ، ومصراً عليه ، ويتحدى بأن يخرج بمفرده . ثم يُخرج أحد عشر جيشا فى يوم واحد ، ويتبين الصحابة من بعد أن موقفه كان غاية فى الحزم والصواب .

ويترك خالد بلاد فارس إلى الروم ويهجم بالمسلمين فى اليرموك . ويظل طوال الليل يبحث عن ثغرة فى سور دمشق ، حتى يجدها ، ثم يوسعها مع حسان ويندفع بالناس .

ويأتى الخبر بوفاة أبى بكر وولاية عمر ، الذى يعزل خالداً عن القيادة .
فيقول عمر : إن أمير المؤمنين يستطيع أن يعزلنى عن القيادة . ولكنه لا يملك أن يجردنى من سيفى . ثم يعمل جنديا فى الجيش ويأتى بالأعاجيب .

و « قتيبة بن مسلم » بعد أن يفتح بخارى ويدك حصونها ويستولى على خوارزم وسمرقند وشاش وفرغانة ، يصل إلى نهـــاية بلاد التركستان . ثم يطىء تراب الصين ويختم ملوكها ويأخذ الجزية .

وينطلق « عبد الرحمن الداخل » من أقصى المشرق هاربا من الموت فيقطع نجاد أفريقيا وصحارى المغرب فيدخل الأندلس ويقيم دولة .

ويسمع « المعتصم » بأمر العربية التى لطمها سيدها فى عموريه ، فأخذت تصيح « وآمعتصماه » فيقول لها لبيك لبيك . ويخرج فى أثنى عشر ألف فارس على أفراس بلق ، فيصل إليها فى زمهرير الشتاء فيقتحم أسوارها ويدك حصونها ويضرم فيها النار .

و« عقبة بن نافع » الذى ظل يزحف حتى وصل إلى المحيط . ودفع فرسه فى الماء وقال : والله لو أعلم أن وراءك أرضاً لذهبت إليها غازيا فى سبيل الله .

« وطارق » يعبر إلى الأندلس فى سبعة آلاف فيحرق سفنه ويقول لرجاله : العدو أمامكم ، والبحر وراءكم . وليس لكم والله إلا الصبر والجلد .

و «بيبرس» الذى حاصر قلاع الباطنية التى ظلت تهدد الاسلام قرنين من الزمان واقتحم حصونهم ودمر سلطانهم .

و « صلاح الدين » الذى أسر ملوك الغرب ثم أطلقهم وأكرمهم وردهم بلادهم .

و «عمر بن عبد العزيز» الذى جرد نفسه من مظاهر الملك . وتحرر من أوضاع السلطان . وعاد بالاسلام إلى بساطته ويسره .

أبو ذر ، وأحمد بن حنبل ، وابن تومرت ، وغيرهم ممن جاهدوا وامتحنوا ثم انتصروا .

هذه الأمثلة وعشرات غيرها تعطينا صورة واضحة لأثر الاسلام فى النفوس . وترسم صورة واضحة لهذا الاسلام الذى انتصر به المسلمون وسيطروا به على العالم .

* * *

وليست سمة « القوة » الواضحة فى الاسلام هى الاستبداد أو الظلم أو الثورة أو الطغيان . وإنما هى مزيج من الرجولة والخلق .

بهذه القوة التى تتمثل واضحة فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية ، شاد المسلمون هذه الدولة الضخمة التى امتدت عبر أسيا وأفريقيا وركزت قواعدها فى قلب أوربا . وبها سحق المسلمون دولتين عاتيتين هما : فارس والروم .

كانت هذه المزية تتمثل فى أقوى مظاهرها ، رجولة فى الحرب لاتبالى بالأهوال الثقال : لا تقف أمامها الصفوف المتكتلة ولا الجيوش الضخمة ولا الفيلة والخيول . ولا الحديد والنار .

وظهر هـــذا واضحا فى الجمع القليل من المسلمين الذى هزم الجموع الضخمة .

وتتمثل البطولة فى الرحمة بالضعفاء والعفو عند المقدرة والسماحة والندى ، والعدالة التى يقف أمامها القوى والضعيف دون تفريق . كما تلمسها فى الوفاء بالعهود ورد الحقوق .

أثر الإسلام فى الحضارة الانسانية[1]

تلقف الإسلام تراث الحضارة والثقافة العالميتين فحافظ عليه وزاد فيه .

وأضاف إلى هذا التراث ذلك المعنى الروحى الخالص ، وقد امتدت سيطرة الاسلام على الحضارة العالمية ثمانية قرون كاملة ونصف القرن منذ بزغت أضوائه سنة ٦١٠ م إلى أن أسلمها للغرب كل مرة أخرى سنة ١٤٦٠ .

تسلم الاسلام لواء هذه الحضارة من فارس والروم والهند واليونان والرومان فمزجها بروحه ، وحولها إلى كيانه ، وأذابها فى معينه ، ثم أضاف إليها وزاد فيها ، وظل يرعاها فى دمشق بالتأليف وفى بغداد بالترجمة وفى القاهرة بالابداع وفى قرطبة بالابتكار وفى أشبيلية بالاكتشاف .

* * *

قام الاسلام منذ فجره على مبدأ التسامح واحترام العقائد ، ومضى يحمل الأمانة دوما . وقد شملت سياسة التسامح الدينى كل البلاد المفتوحة . واستطاعت بذلك أن تكسب الحب وأن تمتزج بالعناصر المختلفة .

ولم يقف الأمر على المسيحيين وحدهم بل واليهود أيضا ... « فقد حظى اليهود فى البلاد الاسلامية — أو على الأقل فى كثير منها — برفاهية

---

(١) اقرأ كتابا كاملا فى هذا الموضوع للمؤلف هو « صفحات من أمجادنا » .

لم يجدو مثلها فى الأمم الأوربية أيام القرون الوسطى أى منذ سنة ٨٠٠ إلى سنة ١٥٠٠ تقريبا ، ويدل على هذا أنه عندما تغلب المسيحيون على المسلمين فى أسبانيا وأخرجوهم ، خرج معهم اليهود وعادوا ينبثون فى الأقطار المحيطة بالبحر المتوسط[1] » .

ولم يرع المسلمون اليهود فى الأندلس فحسب ، بل قاموا بهذه الرعاية فى ظل الخلافة التركية .

وقد صور أرنولد بينيت فى كتابه « الدعوة إلى الاسلام » تسامح الاسلام فى تركيا مع الرعايا المسيحيين فقال « ... إن المعاملة التى أظهرها الأباطرة العثمانيون للرعايا المسيحيين — على الأقل — بعد أن غزو بلاد اليونان بقرنين — لتدل على تسامح لم يكن مثله معروفا فى سائر أوربا .

وإن أصحاب « كلفن » فى المجر وترنسلفانيا وأصحاب مذهب التوحيد من المسيحيين طالما آثروا الخضوع للأتراك تفاديا من الوقوع فى أيدى أسره هابسبورج المتعصبة . ونظر البروتستانت فى سلبيريا إلى تركيا بعيون الرغبة ، وتمنوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الاسلامى .

وحدث أن هرب الاسبانيون المضطهدون فى جموع هائلة فلم يلجأوا إلى تركيا . وكذلك القوازق قد وجدوا التسامح فى ممالك السلطان ... »

---

(١) سلامه موسى : حرية الفكر .

ويصور « ولز » الدافع الذى فرض الاسلام على الحضارات والأمم فى عصره بقوله : « لا يظن القارىء أن موجة الاسلام اتسمت إلى هذا المدى من الاتساع بوسائل المدنيات العريقة كالفارسية والرومانية واليونانية المصرية ...

فإن الاسلام قد تمـكنت له السيادة لأنه كان أفضل النظم الاجتماعية والسياسية التى تمخضت عنها العصور . وأن الاسلام قد تمكنت له السيادة لأنه وجد فى كل مكان أمما خيم عليها الـكسل وتفشى فيها الاستبداد والنهب والظلم . فلما لاقاها الاسلام انقطعت بينها وبين شعوبها الأواصر . فأدخل الاسلام أوسم فـكرة سياسيـة وأعظمها قابليـة للحياة فى تار. البشرية ... »

* * *

ولم يقف أمر الاسلام على القدرة السياسية التى أدخلها على البلاد التى انتشر بها . وإنما جدّد وزاد فى ميادين الفنون والفـكر والعلم والصناعات وسجل هذا الأستاذ كريستى فى كتابه « تراث الاسلام » هذه الحقيقة « ... أصبحت العظمة التى كانت تنسب إلى العرب حقيقة ملموسة . تراها المسيحية . فى دهشة واستغراب ، بعد أن اتصلت الجيوش الصليبية التى جاءت من أطراف أوربا بالشرق . مما أدى إلى ان ينشىء الايطاليون تجارة مع الموانىء السورية . ومن ثم فتح طريق التجارة والتحف الاسلامية

إلى أوربا ، وأخذ الأوربيون فى تقليدها مما أثر فى تطور الفنون والصناعات تأثيراً مباشراً ... »

وتحدث ولز عن أثر العرب فى الفكر العالمى فقال « جاء الفكر العربى بشكل جديد . وبقوة جديدة ، وعالج علاجا شريفا تنمية العلوم الصحيحة ... لقد كان اليونانى أبا للعلم فجاء العربى وحل محله فى هذه الأبوة . وكانت طريقة العربى هى أن ينشد الحقيقة بكل استقامة وبكل بساطة ، وأن يجليها بكل وضوح غير تارك منها شيئا فى ظل الابهام . فهذه الخاصية التى جاءتنا نحن الأوربين من اليونانيين وهى نشدان النور ، وإنما جاءتنا عن طريق العرب » .

وصدق ولز فقد أدخل العرب على كل علم تسلمه من اليونان جديدا واضحا ، قوى الأثر فى تطور العلم وحياته . أدخل على الجغرافية الفلكية والرياضيات نظريات جديدة ، ووضع العرب علم المثلثات الكروية والاستوائية . وعلمى الجبر والهندسة التحليلية . وأضاف العرب إلى علوم النبات والفلك والرياضيات نظريات جديدة . حتى فى أدق الموضوعات ، كالفرق الجنسى والتناسلى بين النخيل والقنب ، ورتبوا النباتات على مبدأ ما ينمو منها من القبائل وما ينمو من البذور ، وما ينمو من تلقاء نفســه .

ووضع العرب فى الصيدلة ، مؤلفات صائبة ، ونبغوا فى فنون الطب ، كما وضعوا نظريات جديدة فى علوم الفلسفة ، وكان ابن رشد وابن ميمون وابن باجه وابن الطفيل فى مقدمة الفلاسفــة الذين تركوا آثاراً قوية رائعة .

وقد نقلت أوربا هذه العلوم إليها فى ختام القرن الثالث عشر ، وأصبحت مرسيليا وتولوز واربونة وغيرها من مدن فرنسا الجنوبيـة مراكز هامة للفـكر العربى .

ويقول العلامة بير الأستاذ بجامعة نيويورك « ... واتخذت علوم العرب إلى أوربا نفس الطريق الذى سار فيه أدبهم إليها . وانتشر نور هذه العلوم على ربوعها عن طريقين : عن جنوب فرنسا من ناحية الأندلس . وعن طريق جزيرة صقلية .

وانتقلت إلى أوربا عن طريق القسطنطينية . وأول مدرسة للطب فى أوربا كانت المدرسة التى أنشأها العرب فى (بالرمو) بإيطاليا ، وأقام المسلمون أول مرصد فلـكى فى أشبيليه بأسبانيا .

ثم ترك المسلمون فى أوربا ، أثار حضارة لا تزال قائمة ، تركوا فى أسبانيا قصور قرطبة والزهراء والحمراء ... وكانت غاية فى الابداع والرواء .

وتركوا فى جنوب فرنسا — وقد طالت إقامتهم هناك أكـثر من قرنين من الزمان — وفى جنوب إيطاليا وفى صقلية أثارهم ومعالمهم .

ويقول د.زى « أنه لم يكن فى كل الأندلس أيام الاسلام — أمى واحد ، يوم لم يكن فى كل أوربا من يلم القراءة والـكتابة إلا الطبقة العليا من القسس » .

وخرّجت جامعة قرطبة ، ومدرسة طليطلة ، وكلية أشبيلية علماء

أوربا الذين جمعوا بين العربية واللاتينية ... وفى مدريد وغرناطة وبرشلونة وبلنسية كانت هناك جامعات ترسل الضوء إلى الغرب البعيد .

ويصف « استانلى لاين بول » المجتمع الأوربى فى هذه الفترة فيقول « بينما كانت شعوب الفرنجة والسكسون والجرمان يعيشون فى الأكواخ ، ويعتلى ملوكهم وإشرافهم ، قمم الصخور فى القلاع المظلمة ، كان العرب والأندلسيون يشيدون قصورهم القوراء . ويردون الحمامات ، كما كان سراة روما يرودونها ، وكلما أنس راهب فى نفسه رغبة فى العلم اختلف إلى الجامعات الاسلامية »

ويقول ولز فى كتابه « تجربة من التاريخ العام » يقول « كانت مدينة العالم الاسلامى سابقة للعالم الأوربى بنحو قرن من الزمان ، وكانت الجامعات قائمة فى البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وقرطبة وترسل نورها إلى العالم كله .

ودخلت فلسفة العرب إلى أوربا عن طريق أسبانيا وعرفت فى جامعات باريس واكسفورد وشمال إيطاليا ...

ولقد كانت هذه الجامعات بالغة الأثر فى توجيه الفكر الأوربى ولا سيما فلسفة ابن رشد .

وفى سنة ٩٧٠ م بلغ عدد المدارس الحرة التى أنشئت للتعليم المجانى بين الفقراء فى قرطبة ٢٧ مدرسة .

وبلغ المسلمون فى الطب حظاً عاليا لم يدانهم فيه اليونانيون .

وكانت أساليبهم فى الطب كأساليبنا فى العصر الحاضر ، ولا زلنا حتى الأيام الأخيرة نستعمل كثيرا من أدويتهم ، وكان أطباؤهم فى الجراحة يعالجون بالكلوروفورم .

وبينما كان يحدث هذا ، كانت الكنيسة فى أوربا تحظر ممارسة الطب وتعتمد فى علاج الأمراض على الوصفات الدينية . كما توصل العرب إلى اكتشاف كثير من المواد الكيماوية . كالكحول والبوتاس والسليمانى . واتقنوا مختلف أنواع الصناعة : الورق والزجاج والخزف والذهب والفضة والحديد ... »

ويصف فضل الحضارة الاسلامية على الغرب مؤرخ آخر ، عرف فى نظرته العلمية بالتعصب . ولكنه أرخ العرب والإسلام على وجه لا بأس به من الانصاف .

يقول جوستاف لوبون « من الواجب أن نذكر العرب ، والعرب وحدهم ، هم الذين هدونا إلى العالم اليونانى واللاتينى وأن الجامعات الأوربية ، ومنها جامعة باريز عاشت مدة ستمائة سنة على مترجمات كتبهم . وجرت على أساليبهم فى البحث . وكانت المدينة العربية أدهش ماعرف التاريخ . وإن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة على كتب العرب خاصة . وإن العرب هم الذين مدنوا أوربا فى المادة والعلم والخلق .

ولئن كان تأثير العرب فى الغرب عظيما . فإن تأثيرهم فى الشرق أعظم ، وما من عنصر أثر مثل تأثيره قط . فإن الشعوب التى دانت الأرض

بسلطانهم . كالأشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان قد عفت القرون أثارهم ، ولم يخلفوا سوى أثار ضئيلة بحيث لم يبق سوى ذكريات دياناتهم وألسنتهم وفنونهم بعكس ما حدث للعرب ».

* * *

هذا ، في الغرب .

أما في الشرق فكيف فعل الاسلام بالأجناس المختلفة التي دانت له .

وكيف استطاع أن يصهرها في بوتقته ويؤلف بينها ، ويذيب ماضيها وعقائدها ، وفلسفاتها في كيانه الضخم القوى .

قام الإسلام منذ اليوم الأول على مبدأ التسامح واحترام العقائد ، لا سيما بالنسبة لليهود والنصارى . وقد استطاعت الدولة الإسلامية بهذا الأسلوب أن تمكن الحب لها ولتعاليمها في نفوس الشعوب والطوائف التي أجهدها الظلم والطغيان .

بل أن الإسلام لم يتح له أن يتسع ويكتسح ، وأن تصل موجته إلى هـــذا المدى من القوة إلا بنظمه الاجتماعية والإسلامية ، وسماحته في المعاملة ومساواته للذين يعيشون تحت لوائه .

ويصور « ولز » هذا المعنى فيقول « لقد وجد أمما خيم عليها الكسل وتفشى فيها الاستبداد والنهب والظلم . وحكومات مستبدة انقطعت بينها

وبين شعوبها الأواصر. فادخل أوسع فكرة سياسية وأعظمها قابلية للحياة فى تاريخ البشرية ·

واختلط العرب بأهالى الأوطان الذين فتحوها وصاهروهم ، وربطوا بينهم بأوثق الصلات · وتركوا لهم حرية دينهم . حتى سهل على المسيحيين وغيرهم أحراز المناصب الرفيعة فى قصور الخلفاء .

وقد نجح الاسلام فى التأليف بين أجناس متباينة وشعوب مختلفة ، وتمكن من إيجاد نظام عالمى عماده إخاء عام جمع بين الشرق والغرب والأبيض والاسود والآرى والسامى والهندى والعبد والسيد ·

وفى تركيا صفحة مشرقة للاسلام · فإن أصحاب كلفن فى المجر وترنسلفانيا وأصحاب مذهب التوحيد من المسيحيين ، آثروا الخضوع للاتراك عن الوقوع فى أيدى أسره هابسبورج · ورضى البروتستانت بالخضوع للحكم الاسلامى ووجدوا فى كنفه الرعاية والسماحة ·

وللمكتبات العربية وأثرها فى الثقافة العالمية حديث ، ذكر جيبون فى كتابه عن الدولة الرومانية أنه كان فى طرابلس على عهد الفاطميين مكتبة تحوى ثلاثة ملايين مجلد أحرقها الافرنج سنة ٥٠٢ هجرية ·

وقال المقريزى أنه كان فى خزانة العزيز بالله الفاطمى مليون وستمائة ألف مجلد ، وروى المقرى أنه كان بخزانة الحكم الثانى بقرطبة أربعمائة ألف مجلد ·

وكانت نيران الفرنجة هى آفه المكتبة الاسلامية ، فقد أحرق التتار مكتبة بغداد وأغرقوا أنفس مجلداتها فى النهر سنة ٦٥٦ ·

ولما سقطت مدينة غرناطة في يد الإسبان أمر البطريق ايكزامينس بإلقاء الكتب الإسلامية في النار فحرق ٨٠ ألف مجلد في ساحات غرناطة .

فإذا عدنا إلى أثر الاسلام في المجتمع وجدناه بعيد الأثر . يقول أرنولد بينيت : « فالاسلام هو الذي أهدى إلى العالم الفكرة الجديدة التي ترمي إلى إدماج الجنس البشري كله في عالم واحد وقد بلغت هذه الفكرة من القوة حداً جعلها تؤلف بين شعوب لم يكن بينها غير العداوة والشحناء .

كما نجح الاسلام في التأليف بين الأجناس المتباينة والشعوب المختلفة وفي تشذيب العناصر الانسانية غير المتناسقة . ولم يجعل الاسلام الأجناس المتباينة جنسا واحداً ولا من الشعوب المختلفة شعبا واحداً فحسب . ولكنه استطاع بهذه الأسس المدعمة المدينة أن يعيد للانسانية مدنيتها المفقودة .

إن فكرة إدماج البشرية في وطن واحد دون الاهتمام بالأجناس والألوان واللغات والتقيد بالحدود الجغرافية هي الهدية التي أهدتها جامعة الاسلام إلى المدينة البشرية .

* * *

والحق . إن الاسلام ربط هذه الأسرة الضخمة الممتدة من جنوب أفريقيا إلى شمال تركيا . والمبسوطة من الشرق البعيد إلى الأندلس . فلم يعد فيها مصري ولا فارسي . ولا عربي ولا نبطي . ولا أسود ولا أبيض .

وكون لها رأيا عاما موحداً ، زاده اتصال الهجرة والمصاهرة ، وأثر الاسلام فى أصحاب الديانات العريقة ، ذات التقاليد البعيدة المدى ، أثر فى الأتراك والمغول والفرس ونقلهم من مدنياتهم القديمة ومن دوافعهم الأولى فاصبحو سادة الإسلام وقادته ، حتى المغول الذين جاءوا فاتحين على تلك الصورة المهولة . عادوا بعد أن صهرهم الإسلام ، فاصبحوا قوة كبرى من قوات . وأنشأوا امبراطورية ضخمة فى الهند (امبراطورية بابر) التى حكمت ٣٠٠ عام .

وترك الإسلام طابعة القوى الواضح فى كل مكان . . فى هذا الامتداد من مراكز الدائرة إلى أطرفها البعيدة . وظهر هذا الأثر قويا واضحاً عندما وقفت الهند ضد بريطانيا — أبان الحرب العالمية الأولى — وبعد الغاء الخلافة الإسلامية .

وذكر الاستخارى فى إسفاره بعد أن زار السند فى أواخر القرن الثامن الميلادى أن اللغة الجارية على الألسن فى منصوره وملتان وضواحيها هى اللغة العربية ، وأيده فى ذلك أبن حوقل ، بعد أن أمضى سبعة عشر سنة سائحاً فى السند . وفى اللغة السندية نفسها مفردات الفاظ عربية متعددة تتناول جميع مرافق الحياة .

ووضع الإسلام يده على جميع مراكز الثقافة فى العالم . وأخضع

فلسفاتها لطابعة ، وأسبغ عليها ذلك اللون الروحى القوى الذى اتسمت به وكان الإسلام فى خلال فتوحه وتغلغله فى طريقه إلى القسطنطينية . وإلى الصين وإلى الأندلس . يأخذ من حضارات هذه الأمم وفنونها ويصيرها إلى كيانه القوى . ثم يعطى هذه الأمم من افكاره ودينه ولغته وبذلك امتزجت فى بوتقته كل الأجناس .

وإن لم يتح للاسلام أن يكوّن وحده سياسية شاملة فقد نجح فى تكوين الوحدة العقلية الثقافية التى أمدت جذورها فيما بعد إلى أبعد مدى .

سناد روحى للحضارة

أحست أوربا ، وأحس مفكروها ، بأن الحضارة تتهاوى وتوشك أن تتحطم وأنه لا سبيل إلى استنقاذها الا بسناد روحى يأتيها من أديان الشرق . ومن قبل قال برناردشو أن « الإسلام » هو الدين الذى يحل لأوربا مشاكلها المعقدة .

أما أن الحضارة الغربية قد بدأت تتهاوى فهذا حق لاشك فيه تؤكده كل الظواهر والأحداث .

أن الحضارة التى ادعت أنها علمية خالصة ، وأنها حضارة العقل لم تستطع أن تؤيد هذا القول بدليل واحد . فقد جندت كل قوى العلم لخدمة الاستعمار وسحق الشعوب الملونة .

وحين تقدم الغرب لمعاونة الشرق ، كانت البعثات التبشيرية هى قوام هذه المعاونة ، . .

وأذاعت أوربا أن المذهب العلمى المجرد ، هو قوام ثقافتها ومع ذلك فقد عكفت البعثات التبشرية . وفريق من المستشرقين على بث التاريخ المشوه للشرق فى نفوس أبنائه . وعلى أشراب التلاميذ عقيدة مزيفة قوامها أن الشرق بحكم دينه الغالب وبحكم تاريخه لا سبيل إلى تقدمه مالم ينزع عنه ثوب هذا الدين ومالم يفصل بينه وبين ماضيه بسياج متين .

بل اننا لانخلى أحرار الفكر فى الغرب من هذا التعصب .

هذا فولتير أمام الفكر الحر كما يقولون والذى قال أن الفكر فوق الأديان ، كتب قصته التمثيلية « محمد » فسب فيها النبى العربى سبا قبيحاً وقدمها إلى البابا نبوا الرابع عشر بعبارات لاتليق برجل مثله وختمها بقوله « فلتأذن لى قد استك أن أضع عند قدميك هذا الكتاب ومؤلفه ، وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة ، وأنى مع الاجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القديستين . . » .

هذه العبارات من فولتير تنهض دليلا أكيداً على فشل أسطورة الفكر الحر التى ابتدعتها أوربا . وأدعاها فولتير .

قد ثبت بالمراجعة أن كتاب أوربا الأحرار ، يكونون أبعد عن النزاهة عندما مايتصل أمرهم بالشرق فقد يتسع أفقهم عندما يتحدثون عن أى شيء ولكنه يضيق غاية الضيق حين يتصل بالشرق والاسلام . وتبدو على أقلامهم عوامل العداء الحاد والخصومه الماحقة التى تطغى على كل شيء . والتى تتجرد من النزاهة والحرية .

بل أن أوربا قد طبقت فى اتصالها بالشرق أراء ميكافيلى التى رسمها فى كتابه « الأمير » حتى هؤلاء المعتدلين أمثال جب وماسنيون وغيرهما ممن درسوا الحياة النفسية والاجتماعية فى الشرق ، إنما قصدوا ببحوثهم وكتاباتهم إطلاع أممهم على جوانب الضعف فى حياتنا والوسائل الكفيلة بتغريب الشرق .

ويكشف هذه الحقيقة قول « تاليران » أحد كبار الساسة الأوربين

حين يقول « أن اللغة لاتستخدم إلا لاخفاء الحقية آرائنايه » وهكذا يؤمن السياسى الغربى باستخدام اللغة لتضليل سامعيه وإرضائهم وكسبهم إلى صفة .

وتشهد جميع صنوف الظلم والإعنات الذى يصبه الاستعمار على الدول الإسلامية على مدى إيمان الغرب بمبدأ « الحرية والأخاء والمساواة » .

والواقع أن الحضارة الأوربية ما تزال تعانى الصراع الداخلى الممزق بعد أن أعلنت الشك فى أولى دعائمها . وهى الحريات وحقوق الإنسان وبعد أن اتخذت العلم والاختراع أداة للقتل وسفك الدماء وهدم المدن .

ثم فصلت الحضارة بين الأجناس فقال أندرية سجفريد « أن موطن الرجل الملون يبدأ من كالية » .

ودعا لورنس إلى الجرأة فى الإباحة وفاقه فى الانحراف الجنسى «جويس» .

وقال كبنج « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » .

ولم تستطع أوربا أن تضع نظاماً لمجتمعها فعاشت فى صرع بين مذاهب الرأسمالية والشيوعيه .

وبدأ الصراع الفكرى والحضارى فى الغرب حين نادت العنصرية بعبادة القوة وطبعت العناصر الجرمانية فلسفة نيتشه . وآمنت الولايات المتحدة بنظرية الحاجز اللونى ودخل اللورداللنبى فلسطين سنة ١٩١٨ فقال أن الحروب الصليبية قد انتهت الآن .

ولم يصدق العالم دعوى الأوربيين فى الحرب الأولى من أنهم إنما يحاربون من أجل الشعوب الصغيرة ولم يصدق أيضا دعواهم فى الحرب الثانية من أنهم إنما يحاربون من أجل القيم الانسانية العليا .

وبينما يدعى الغرب أنه يحمى الحضارة التى تقوم على أساس المساواة بين الأجناس ، إذا بنا نجد فى الولايات المتحدة ١٣ مليوناً من الزنوج الأفريقيين الأصل يعاملون أسوأ معاملة فى البلد الذى أعلن منه ولسون المبادىء الثلاثة عشر فى حق تقرير المصير .

وفى ١٩٤٦ وصلت الاضطهادات الدينية فى أوربا الوسطى إلى أبعد حد ولقى أصحاب الاقليات الدينية فيها — رغم انتصار الديمقراطيات — الاضطهاد والتحامل الدينى .

وقال برتراندرسل يندد بهذا الاتجاه للحضارة أنه ليس من قوانين الطبيعة أن يسود الرجل الأبيض إلى الأبد ، فقد انتهى عصره ، ولن يلقى بعد اليوم الحياة الرخية التى لقيها فى القرون الأربعة الأخيرة .

وأثيرت معاملة الزنوج فى أفريقيا الجنوبية الغربية ، بعد ثبت أن المستعمرين البيض يحتقرون الشعوب الملونة من سكان البلاد الأصليين كالعرب والهنود والصينيين . وقد كانت الحكومة الإيطالية تمنعهم من دخول المعابد والمطاعم والفنادق ودور السينما .

والنظرية العنصرية قد أصبحت دعامة قوية من قواعد الحضارة الغربية ، هذه النظرية التى تدور حول وجود اختلافات جوهرية ذهنية وجسمانية

بين الأجناس البشرية وتفسر التاريخ تفسيراً يعتمد على الأنانية المطلقة وتدعو إلى ازدراء كل ما هو أجنبي .

ويتناقض هـــذا الاتجاه العملي مع الوثيقة الدولة التي وقعتها الأمم المتحدة في ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٩ والتي أعلنت بها حقوق الإنسان ونصت على حرية الأفراد والمساواه بينهم في الـكرامة والحقوق - وسيادة روح الأخوة في علاقاتهم بغض النظر عن الفوارق التي ترتد إلى الجنس أو اللون أو اللغة أو النوع أو الدين أو الوضع الاجتماعي والاقتصادي .

هذا فضلا عما نص عليه ميثاق هذين الأمم المتحدة من تحريم الاضطهاد العنصري والتفريق بين الأجناس .

فإذا كانت أوربا قد حطمت العماد الأول لحضارتها وأهدرت الدعامة الأولى لـكيان مدنيتها وهي « حقوق الإنسان » فأن هذا من غير شك علامة الانهيار .

ولطالما تؤمن أوربا بنظرية الرجل الأبيض والرجل الملون فإن مصيرها سيكون نفس نبوءه الأمبراطور غليوم الذي قال أن انتهاء سلطان أوربا على العالم سيأتي من الشرق .

وقد تنبأ بذلك مستر سنمرويلز في المؤتمر العلمي للامم الأمريكية حين قال « أنه ليس في مقدورنا أن نتكهن بشيء عن احتمال العودة مرة أخرى إلى ظلام القرون الوسطى على الأقل فيما يتعلق بشئون الروح والفـكر » لحقوق البحث الحر ليست موجودة . وحقوق الإنسان مهدورة . ومجازر الاستعمار

فى كل مكان . والصراع بين البيض والسود فى أمريكا ماض فى طريقه وكل هذه عوامل خطيرة على مصير الحضارة .

ولم يقف الأمر عند هذا ، فإن الفلسفات المادية المنحلة والاتجاه نحو الجنس والنزوات . والمدرستان السريالية بعد الحرب الأولى والوجودية بعد الحرب الثانية قد حملت الشك وإطلاق العنان للاعصاب المنحلة .

وقد استطار أثرها فى النفوس « العدم وأنا ، الشك فى المستقبل ، الهرب من الواقع ، الاعتقاد بأن التاريخ حوادث مفككة والغد خرافة » .

فإذا أنظرنا إلى الشرق نفسه خلال هذه الفترة العصيبة رأينا كيف جرينا وراء هذا البريق ، وكادت أن تصرعنا هذه الحضارة الجديدة . وأوشكنا أن نذوب فى خضمها .

وفى الوقت الذى بدأ الغرب يشك فى حضارته وينقدها بعنف ، مضينا نحن نأخذ هذه الحضارة دون تخير ، نأخذ شرها وإثمها ، ونترك معانى القوة والتسلط فيها .

حدث هذا فى الوقت الذى بدأ الغرب يبحث عن الروحية ويؤمن بأن أسرافه فى الاندفاع وراء المادية هو الذى أوصله إلى هذا الوضع الرهيب .

صحيح أن هذه الحضارة ليست ملك الغرب وحده ، وإنما هى تراث الإنسانية يحفظه كل من أتيح له القوامة على المجتمع الإنسانى والسيطرة عليه وقد تلقفها الغرب من العرب الذين تسلموها من اليونان والفرس والهنود .

ولكن ليس معنى هذا أن ننصهر فى بوتقتها . وهذا ما يقع بالفعل ،

فإننا فى الشرق مازلنا نؤمن بأن فى يدنا ترياق هـذه الحضارة . وقد اقنعتنا الثورة المصرية والقومية العربية والاتجاه إلى الحياد الايجابى وعدم الانحياز بأننا سنعود مرة أخرى إلى مكان الصدارة والقيادة .

* * *

ولا شك أن روحانية الشرق هى الدعامة الأخيرة التى تستطيع الحضارة بها أن تقوى على مواصلة الحياة . ومن نظام الاسلام يستطيع الغرب أن يجد الهدى بعد أن مضى يتخبط بين الديمقراطية والديكتاتورية والرأسمالية والنازية والفاشية والشيوعية . لقد فشل الغرب فى أن يحول بين الشرق وبين الروحية والدين . وكل المحاولات التى قام بها الغرب فى هذا الصدد قد تحطمت . ومر الشرق من المرحلة العصيبة التى كانت امتحانا لقدرته على على الصمود فى وجه التغريب .

لقد حاول الغرب أن يفسد مقاييسنا الاسلامية فى تقدير المثل العليا وأن يصرفنا عن روحانيتنا . وأن يدخل على السياسة عندنا مبادىء الوصولية . بفصل الحـكومات عن الشعوب . واستطاع أن يكسب بعض الملوك والحـكام إلى صفه .

وتحول التيار الوطنى إلى تيار سياسى وصراع حزبى داخلى . وتأثر الفـكر الإسلامى المعاصر بروح الغرب وبدت هناك موجة الاستهانة بالتراث القديم ، والدعوة إلى الحضارات البائدة كالفرعونية والبابلية والأشورية .

ولـكن الميزان لم يلبث أن اعتدل بعد قليل وبدت فى الافق قوة أيجابية فعالة هى قوة القومية العربية وبذلك أخذت تتحطم جميع المعالم الدافعة

إلى هذا التغريب ، وبدأت اليقظة الثورية الجديدة عـــلى أساس الايمان بمقدراتنا ومقدساتنا وتراثنا وكان قوامها الايمان بأنفسنا والقوة من أجل المحافظة على السلام وبدأ امثال لويس ماسنيوس يقول « أن الاسلام الذى هو موضوع بحثنا ليس دينا بالمعنى المجرد الخاص الذى نفهمه اليوم من هذه الـكلمة ، بل هو مجتمع بالغ تمام الـكمال يقوم على أساس دينى ويشمل كل مظاهر الحياة الانسانية لأن ظروف نموه أدت إلى ربط الدين بالسياسة بل إلى ربط علم الـكلام بالسياسة ... والحق أن الاسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات ، أنه أعظم من ذلك بكثير ، أنه مدنية كاملة » .

* * *

الحق ، أن « الغرب عاش أخريات أيامه مادى النزعة لا يشعر بغير المادة ، ولا يعترف بغير المادة ولا يحس موجوداً غيرها . حتى ماتت فى نفوس أبنائه عواطف الرحمة الانسانية وهيمن الغرب على الدنيا بأسرها بمعارفه وعلومه وزخارفه وكشوفه وصبغ الفـكر البشرى فى كل مكان بصبغته هذه ... والآن والدنيا كلها تـكتوى بهذه النيران تنثيق الدعوة من جديد لتهيب بالناس فى الشرق والغرب معا أن يمزجوا المادة بالروح وأن يؤمنوا بالغيب والشهادة . وأن يتعرفوا من جديد إلى الله ... »

كل العوامل التى بين الدنيا تؤكد أن الحضارة الغربية لا تستطيع أن تعيش إلا أذا اتخذت من الاسلام سناداً روحيا لها . فإذا لم يسرع الغرب بالتماس هذا الطريق فإن شمس حضارته ستغرب ويصح الدور الطبيعى فى القيادة العالميه للشرق ؟

لقد اثبت العالم الاسلامى قدرته على البقاء والحياة بعد أن حمل الغرب محاوله خلال قرن كامل محاولا سحق القوى الايجابية فى هذه المنطقة بلا هوادة ولا توقف . ومصطنعا كل أساليب التحطيم دون أن يؤثر ذلك فى هذا البناء الذى ظل شامخاً وازداد على الأيام قوة حياة .

هذا فضلا عن أن هذه المنطقة التى يسيطر عليها الاسلام هى أخطر منطقة فى العالم كله اليوم من الوجهه الاستراتيجيه ومن كل وجه أخرى سواء أكانت المواد الأوليه أم الخامات أم غيرها .

ومن شأن هذه القوة التى تأكدت معالمها فى « القومية العربية » وأن تؤثر فى كيان العالم كله .

لقد استيقظ العالم الاسلامى وعلامة يقظته توحده واتجاهه نحو الحرية والقوة والسيطره على مقدراته .

وتنتظم هذه الرقعه التى يطلق عليها الشرق الاسلامى ما بين المحيطين الهادى والأطلسى « قارتى آسيا وأفريقيا » وتمتد شمالا إلى تركيا والقوقاز

وتركستان وشرقا إلى إيران وأفغانستان . والهند وأندونيسيا وجاوه وجنوبا إلى ارتريا والصومال والحبشة وكينيا وأوغنده .

وقد عرف الغرب خطر هذه الرقعة الموحده إزاء مطامعه فى السيطرة عليها فألح عليها بالتمزيق والغزو وشغل كل قطر بأحداثه الخاصه . ومع ذلك فأن هذه الأحداث لم تشغل الشرق كثيرا عن التآزر والارتباط والتوحد .

وفى خلال الفترة الواقعة بين نهاية الحرب الأولى حتى الآن ، ترك الاستعمار فى كل منطقة من هذه المناطق أثراً دامياً من مقاومه الأحرار والحريه .

ولم يقف الأمر عند استعمال القوة فى سبيل مقاومه هذه الحريه ، بل أن عوامل أخرى متعدده قد اتخذت فى سبيل تخدير أعصاب الراغبين فى تحرير أوطانهم سواء أكان ذلك بالتصريحات الخادعه ، أم الحلول الوسطى ، أم المفاوضات .

* * *

ومع ذلك فأن العالم الاسلامى كان رغم كل عوامل الارهاب والقتل والتشريد التى عومل بها فى مختلف الأقطار مازال مؤمنا بحقه فى البقاء ، وما تزال روحه قويه قادرة على الثبات فى الميدان .

ويصور لويس ماسينون هذا المعنى فى كتاب « وجهة الاسلام »

حيث يقول « إن الحركات الفكرية فى الاسلام تستعد فى خفاء وصمت وتندفع فجأة دون أن يسبقها نذير يمكن أن يرى . وبعباره اصطلاحيه أكثر دقة يستطيع أن نصور ما تقدم هكذا .

أول الأدوار هو دور النداء الباطن الذى يهيب بالضمير الاجتماعى ويوقظه . وأن ظل فى حاله هدوء ظاهرى أو ظل كما تعبر عنه طوائف مختلفه فى حاله تقيه أو كتمان . فإذا نضج هذا النداء تبعه الدور الثانى مباشره وهو دور الدعوه . دعوة القبائل إلى امتشاق الحسام . أو للنفير العام الذى يجاهد جنوده ليستردوا بالسيف ما تعطل من حقوق الشريعة هذا هو المفهوم الذى يصدق على كل الحركات والذى تسمى عند مختلف الجماعات وفى مختلف الأوقات بالظهور أو الدفع والخروج أو الشراء » .

ثم يقول موجها كلامه للمستعمرين :

« يجب أن نجعل هذه الحقائق نصب اعيننا ، إذا أردنا أن ندرك أى أساس واه تقوم عليه المنشئات الأوربيه فى بلاد الاسلام ، فبعد أعوام من السكينه ربما تندفع بغتة نار الدعـــوة إلى الجهاد أبعد ما نكون توقعا لها . وقد لايكون هناك مجال نقد فكره الجهاد فى ذاتها بما يتفق مع وجهه نظر دعاة السلم وأن حاول نفر من دعاة المسلمين اليوم أن أن يبخسوا قدر الجهاد ، ويوهنوا من قوته ، فلا جرم أن من مقومات الدعوة فى الاسلام أن نحافظ فى الحياة على هذه العقيدة وهى أن هناك أشياء أكبر من أن تكون بين الناس موضع مساومه .. »

* * *

وقد صدق ماسنيون الذى كتب هذا الكلام عام ١٩٣٠ فقد انفجرت ثورة الوطنية فى اندونيسيا ومصر وتونس ومراكش والجزائر بعد الحرب العالمية الثانية وتحولت إلى جهاد مقدس وحققت نصرا مؤزرا على الاستعمار .

وبعد فالاسلام ليس دينا فحسب . بل هو تراث وفكره وثقافه ..

يمثل هذه المجموعة الضخمة التى تستظل بظله . فهو بهذا مذهب اجتماعى كامل . أنه اللون الذى يصنع المجتمع الشرقى كله الذى يمتد من اندونسيا إلى الدار البيضاء بما فى ذلك جميع الطوائف المسيحية واليهوديه وغيرها .

أن الاسلام فى حقيقته تراث أعطى الشرق لونه الخالد القائم الذى لايتغير ولا يتحول . انه ذلك التراث المتمثل فى خلاصات الأديان السماويه ، وجماع الروحانيات التى لم تستطيع العصور والأحداث واختلاف الدول والأزمان والحروب والثورات ومصارعات الاستعمار أن تقضى عليه أو تقتله :

لقد حاول الغرب أن يحول بين الشرق وبين تراثه وأن يربطه بتراث أخر ، ولـكنه لم يفلح

أن كلة الاسلام والشرق فى نظرى كلة واحده فهما لا ينفصلان .

ولقد جاء اليوم الذى امتزجت فيه جذور الثقافات الشرقية من مسيحيه ويهوديه وفارسيه وهنديه ورومانيه وافريقية بالثقافة الاسلاميه فذابت فيها وكونت منها ذلك التراث الشرقى الذى يطلق عليه التراث الاسلامى بحـكم الأغلبية الساحقه .

ونحن حين نمجد فى الشرق دينه ، إنما نريد ذلك المعنى الروحى

القوى الشامل الذى يلمس النفوس فيدفعها إلى الخير ويردها عن الشر . ذلك الروح السماوى العلوى الذى انتظمة الأديان وجاء به الرسل .

ويتمثل هذا المعنى فى نبأ صغير قرأته أخيرا وهو أن منظمة الفساسنه فى لبنان تحتفل بأعياد الاسلام وتحتفى بها معتقدة أن محمـــد لنصارى العرب كما لمسلميهم . وأنه مفخره من مفاخر الشرق لا ينفرد به فريق دون فريق .

هذا هو المعنى الذى ندعو إليه على صورة واسعه . وهو أن نؤمن بالتراث الشرقى كله كاملا ونعتز به ، على أساس أن هذا الإيمان هو السلاح الأول فى سبيل كسب معركة الحريه .

لقد ذكر القرآن جميع الرسل والأنبياء ، رسل المسحيه واليهوديه والأديان البائده بالتكريم والأعزاز فضرب المثل بهذا المعنى الواسع العميق الذى يمثل الشرق ، مهبط الرسالات ومولد الأنبياء .

وأريد بالتراث الاسلامى هذا الفكر الخالد الذى تركة ابن رشد والغـــزالى وابن تيمية والشافعى ، والذى يتسم بالأنصاف فى الرأى والنزاهه فى الفكر والتجرد عن الهوى . والذى يبدى مدى الفارق بين السماحه والتعصب حين ترجم إلى فولتير وهانوتو وريتان وتقرأ الفكر المتعصب الجامح . فى الوقت الذى تدعى أوربا أنها هى التى ابتدعت الفكر الحر والتجرد العلمى وحريه الرأى .

ونريد بالتراث الاسلامى هـــذا الذى دعا المفكرين الأحرار فى أوربا إلى الهجرة إلى الشرق ، وعلى رأسهم شليجل وجوته ولا مارتين وهوجو .

هذه الثقافه التى غزت عقول الجرمان وجعلت فردريك الثانى امبراطور الدوله الرومانيه المقدسه يقرأ العربيه .

هذا التراث الروحى الذى صنعه الشرق ولونه الاسلام هو القوة الباقية لتضع الشرق فى مكان الصداره . إنها الأداة التى تـكتب له دوره المقبل .

فإذا استطعنا فى الشرق أن نفهم هذا المعنى الروحى الخالص ، وأن نتجرد عن الخلافات الصغيرة حملنا إلى العالم رساله جديده هو أشد ما يكون حاجة إليها فى صراعه المادى العنيف .

هذا التراث الروحى الاسلامى الشرقى الذى لا يفرق بن المسلم والمسيحى باعتباره قوميه جامعه

لقد امتزجت كلمتى الاسلامى والشرق منذ ثلاثه عشر قرنا فأصبح الاسلام ليس دينا فحسب ، بل هو حضارة ومدنيه وتراث وتقاليد لها طابعها المفـرد : وهى الآن القوة الباقيه بعد أن فشلت الحضارة الغربيه فى أن توفر للبشر نظاما سليما كاملا حراً . بل أن هذا اللون المادى

الخالص لم يسعد الإنسانية برغم ما وفر لها من الوقت والمال والسرعة . فقد انقلب إلى اعصار قاتل فى الحرب ، الطائرات تلقى الحمم ، والمصانع تنتج القنابل ، وقوى الطبيعة والاختراع قد سخرت جميعها لإبادة الانسانيه لا لإسعادها .

ودعت أوربا إلى الفكر الحر ولكنها لم تطبقه .

ودعت إلى الحريه فى الوقت الذى سحقت فيه الحريه .

وفرقت بين الرجل الأبيض والرجل الملون فى قلب العالم الجديد .

دور الاسلام فى القيادة العالمية

القضية الآن ، هو أننا ما زلنا نجرى وراء بريق الغرب فى الوقت الذى بدأ الغرب يبحث عن « روحانية » الشرق . . ، وأننا ننظر إلى مظاهر الحضارة الغربية والثقافة والقضايا والنظريات الأوربية على أنها قواعد مقدسة ، ننظر إليها باحترام وإعجاب ، بينما الغرب نفسه قد دب فى قلبه الشك ، عندما أحس أن أوضاعه لم تستقر ، وأن صميم كيانه مازال مضطربا غاية الاضطراب ، وأنه قد اندفع إلى مادية قاسية تكاد تعصف بنظمه جميعاً .

اتجه رأى المفكرين والفلاسفة الأوربيين أخيراً إلى العودة إلى الشرق وإلى البحث فى روحانيته وصوفيته ودينه ، على أساس الفكرة التى ظلت تتردد وقتاً طويلا . . فى ضمير الغرب ، وكان يشن فى مقاومتها حربا عنيفة لا هوادة فيها . . ثم إذا به بعد أربعمائة عام من هذه الحرب أو يزيد يجد أن هذه القوة ما زالت تنمو . . وأنها لم تمت . . وإذ به يرى أنه فى حاجة إليها لتسند هذا البناء الضخم الذى أوشك على الانهيار . . تلك القوة هى قوة الروح ممثلة فى الإسلام ! .

إن المفكرين اليوم الذين يدعون إلى العودة إلى الإسلام والشرق، يرون أن العالم قد كابد من مادية العلم الكثير من المتاعب، وأنه قد ضعف عن احتمال هذا اللون العاصف ، وأنه لا فائدة ترجى لصلاحه إلى بأن يعود إلى أحضان

الدين . . وقد بدأت الآثار الأدبية والفنية تطعم بروح الشرق ، ... وكتابات « جراهام جرين » وقصائد « توماس اليوت » خير شاهد على ذلك . .

بل إن الدكتور « لورنس برون » قد قرر من قبل فى كتابه طوالع الإســـلام الذى صدر سنة ١٩٤٤ بأن « الأمل معقود فى نهوض دعوة « إنسانية » تنفع البشر كافة . . وأن هذه الدعوة يجب أن تقوم من أعماق الروح (الإسلامية) . . ثم عقب على ذلك بقوله « إن الأمل فى ذلك ما زال ضعيفاً » .

وقد استطردت الأحداث فى خلال هذه السنوات العشر ، مما نعتقد معه أن الأمل قد ازداد قوة ، فى ظهور هذه الدعوة وتألقها . .

... وعبر المستشرق « ت. م. جود » عن هذا المعنى بقوله « فى وسط أوربا أخذ الشباب المتطلع للمثل العليا بعد تهدم المثل القديمة يبحث عن عقيدة جديدة وروح جديد » .

* * *

ولعل أسبق هؤلاء جميعا إلى فهم « روح الإسلام » والتنبؤ بصلاحيته لإنقاذ الحضارة العالمية هو (برناردشو) ، وهذه عبارته :

« لقد وضعت دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل جيل من الناس .

لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوروبا غداً . . ، وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم . وقد صوره رجال « اكليروس » القرون الوسطى بأحلك الألوان إما بسبب الجهل وإما بسبب التعصب الذميم . .

كانوا يعتبرونه خصما للمسيح ولقد درسته — يقصد النبي محمدا — باعتباره رجلا مدهشا فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح بل يجب أن يدعى (منقذ) الإنسانية ، .

وأني لأعتقد أنه لو تولى رجل مثله دكتاتورية العالم الحديث الآن لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة اللذين هو فى أشد الحاجة إليهما . .

ولقد أدرك فى العهد الأخير مفكرون مخلصون — أمثال كارليل وجوته وجيبون — القيمة الذاتية لدين محمد ، وهكذا وجد تحول حسن فى موقف أوروبا من الإسلام ، ولكن أوروبا فى القرن الراهن تقدمت فى هذا السبيل كثيرا فبدأت تعشق عقيدة محمد ، وفى القرن التالى ربما تذهب إلى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها » .

وهكذا صور برناردشو (الإسلام) فى إنصاف ، ورسم النبوءة التى بدأت تتحقق بصورة واضحة .

والحق أن أوربا كانت تحارب الإسلام لأنها تخشاه وتعرف مدى خطره ، إنها كانت تؤمن فى صميم نفسها بأنه قوة ، وبأن خطره سيحول

دون توسعها الاستعماري ، وأن أى إنسان يستعرض تاريخ الإسلام الطويل يدهش لهذه القوة الخارقة ، التى استطاعت فى أقل من قرن من الزمان أن تقيم امبراطورية ضخمة دون قتال . . وأن تستمر قوة الإسلام على مدى القرون لا يعتورها الضعف ولا الكلال بالرغم من تحطم القوة السياسية أو ضعفها .

وهذا المبشر « أوجين يونغ » فى كتابه « الإسلام وآسيا » يصور الإسلام فلا يستطيع أن ينكر قوته وعظمته يقول :

« الإسلام قوة لا يسهل القضاء عليها ، فلا الثقافة اللاتينية ولا غيرها يبلغان منها ، فليس رسل الإسلام مبشرين ينتشرون فى البلدان حاملين التوراة فى طليعة فاتحين ، يحملون فى برودهم المطامع ! . .

ولذلك فنحن نكرم وفادتهم ونسمع صوتهم ، وتروق عقائد هذا الدين فى عقول الشرقيين والأفريقيين .

... أجل إنه يجتاز الآن عقبه كؤوداً ليصل إلى دور التجديد والإصلاح ، ويسهل عليه هذا الأمر بفضل « القرآن » ، فإن قوته تزداد ، فقد شخص من جزائر السوند فى هذه السنة ٨٠ ألف حاج يقصدون بيت الله الحرام ، ولا بد أن يكون هؤلاء الحجاج قد اتفقوا مع الحجاج الآخرين على أمور خطيرة تهم الإسلام عموماً » .

وقد اعترف الغربيون بأن الإسلام لم يكن يوما ما جامداً أو أنه توقف عن مسايرة الحضارات والنهضات وتطورات الزمن ...

يقول لو تروب ستودارد :

« لم يخل الإسلام فى جميع ماضيه حتى فى أشد عصوره حلكا من بعض المصلحين الأحرار ذوى العقول النيره ، والمدارك الثاقبة والهمم الصادقة ، وإنما كانوا يتوالون الحقبة بعد الحقبة ، فيصرخون فى المسلمين صرخات الإصلاح الشديدة ويرفعون علماً من أعلام الهدى والرشاد » .

ولم تكن ظاهرة اجتذاب الثقافة الإسلامية لعقول الغربيين جديدة ، فقديماً اجتذبت عقول الجرمان ، وكان فردريك الثانى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة يعرف العربية ، وكذلك « جيتى » الذى ألف عن الشرق ديوانا وألف « شاتوبريان » عبقرية المسيحية ، ورحل « لامرتين » إلى الشرق ؛ ووضع « هوجو » الشرقيات . . .

وقاد « شليجل » حركة قوية تدعو إلى الهجرة الروحية إلى الشرق .

وقد انتهى هذا كله بأن أصبح الأوروبيون الآن يرون أن الإسلام لا زال فى مقدوره أن يقدم للانسانية خدمة سامية جليلة ،لا يستطيع غيره أن يقدمها ، وليس هناك أى هيئة سواه يمكن أن تنجح نجاحاً باهرا فى تأليف الأجناس البشرية المتنافرة فى جبهة واحدة ، أساسها المساواة .. وأنه إذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس فلا بد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع ..

* * *

غير أنه بقى على الشرق بعد ذلك أن يؤمن بنفسه ، وأن يعد نفسه

للدور التاريخى الحاسم الذى سوف تضعه تطورات الأمور على كتفيه المريضتين .

وقد أعجبنى فى هذا المعنى كله للأستاذ توفيق الحكيم هى قوله :

يا أهل الشرق :

آن الأوان أن تفكروا لأنفسكم وأن توجدوا للفضائل تفسيراً غير ذلك التفسير المصنوع فى مصانع العقل الغربى .

آن الأوان للشرق أن يمحص كثيراً من أفكار الغرب قبل أن تعتنقها حقائق لا تقبل الإنكار .

الحضارة الغربية الآن فى حاجة إلى موجة من « الشك » ترتفع فى الشرق لتغربل كثيراً من القيم التى قامت عليها هذه الحضارة .

يجب أن نفعل ذلك لا لمصلحتنا وحدها ، بل لمصلحة الحضارة الغربية ذاتها .. ، إن الغرب يبدو لنا أحياناً فى موقف من تورط فى طريق سار فيها منذ أجيال فلم تهده إلى غايته ولم يستطع عنها رجوعا ... وهو يجر الشرق فى ركابه ، راضيا مزهواً مدفوعا بكبريائه ، لأنه اعتاد أن يفهم رشده ويتبين الخطر ويعترف بالخطأ » حقا ، لقد آن الأوان للشرق أن يفهم حقيقته، وأن يؤمن بنفسه ، وألا يندفع وراء التقليد الغربى ... وعليه أن يتأهب ليغزو العالم برسالته .

إن هذه الحضارة الغربية — كما يقول الدكتور عبد الوهاب عزام

« قد جاءت إلى الشرق فى صورة الغلبة والقهر ، وعلى أيدى أعوانه فلم يثق بهـا وخشى منها على استقلاله ، وعلى أديانه ، وعلى آدابه ، وبقى زمناً يكافح أصحاب هذه الحضارة دفاعا عن نفسه ، ويعادى الحضارة نفسها من أجلهم » .

وهذا كلام كله صدق ، فلو لم تأتنا هذه الحضارة فى صورة القهر ، لأستطعنا أن نقف منها موقف (المصلح) وهو موقف الشرق من كل شىء . . يعطيه ويأخذ منه ، ويسبغ عليه روحه ، ويذيب خير ما فيه فى كيانه ويهضمه فى معدته القوية هضما . .

إن عيب هذه الحضارة الغربية أنها أعلنت حقوق الإنسان والحريات كلاماً ... وكانت هى أول من حطمت هذه المعانى العليا عمليا . . حطمتها فى كل مكان ذهبت إليه .

كانت تؤمن بهذه المعانى فى دآخلها ، فإذا ذهبت إلى الهند أو إلى مصر سحقتها سحقا ، وعاملت أهالى تلك البلاد معاملة العبيد .

هذه الحضارة الغربية التى فرقت بين الرجل الأبيض والرجل الملون .

هذه الحضارة التى جعلت من الوسائل الصناعية أداة لسحق البشر .. لا لتمدين البشر .

هذا هو « السوس » الذى ينخر قلب الحضارة الأوربية ويدفعها إلى الهاوية ! ! .

فما هى مهمة الشرق . . لإنقاذ الحضارة ؟ .

دور الإسلام في القيادة العالمية

نستطيع أن نضيف إلى الإسلام صفة مشتقة من طبيعته وتاريخه الطويل المعقدة ، هي صفة « الاكتساح والزحف المتصل » . . بحيث يمكن القول بأن الإسلام يزحف زحفا دائماً ، منذ بزغت أضواؤه حتى الآن ، دون توقف أو تراجع .

وبالرغم مما مر عليه من أزمات ، ومن أعاصير ، ومن عهود مظلمة ، ومن محن صخمة عاتية ، فإنه لم يكن يلبث إلا قليلا ، حتى يستعيد قوته ويزحف مرة أخرى لاكتساب أرض جديدة . وسرعان ما كانت قوته الذاتية وحيويته المتجددة تدفعه إلى الأمام :

ظهر في جزيرة العرب فلم يلبث قبل مرور قرن من الزمان أن مدّ جناحية مداً سريعاً فوصل إلى الأندلس ، ووصل إلى الصين ، وسرعان ما سيطر على هذه البقعة الضخمة ، بتقاليده ومذاهبه وأفكاره قبل أن يسيطر عليها بسلطانه المادي . .

ويصور هذا المعنى « توماس أرنولد » بقوله « مع أن هذه المملكة الواسعة (أي المملكة الإسلامية) قد انقسمت بعد ، وتضاءل سلطانها السياسي ، فإن الفتوحات الروحيـــة ظلت ماضية في طريقها لا يقف أمامها شيء ...

وفي الوقت الذي خربت فيه عصابات المغول ، بغداد ، وفي الوقت

الذى طرد فيه المسلمون من قرطبة .. كان الإسلام قد اكتسب أتباعاً جدداً في جزيرة سومطره ، كما كان على وشك أن يبدأ انتشاره المظفر في بلاد الملايو » .

ولم يقف أمر الإسلام عند هذا الحد ، فقد مضى يفتح بقوته الروحية بعد أن توقفت فتوحه الحربية ، وتقلص سلطانه السياسى ، بل إنه استطاع أن يحمل الفاتحين المتبربرين على أن يعتنقوا الإسلام وقد جاءوا محاربين له راغبين فى سحقه والقضاء عليه .

وفى هذا يقول توماس أرنولد أيضاً « فى حادثتين تاريخيتين هامتين ، وطئت أقدام المتبربرين رقاب المسلمين الأتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر والمغول فى القرن الثالث عشر فى كلتا الحالتين اعتنق الغالب دين المغلوب . كذلك نقل المبشرون المسلمون عقيدتهم من غير مساعدة سياسية إلى أفريقية الوسطى والصين وجزائر الهند الشرقية » .

وإذا كان الإسلام قد استطاع أن يواصل الزحف فإن أحداً لا يستطيع أن يتهمه بأنه قد اتبع فى سبيل كسب المناطق الجديدة أى وسيلة غير وسائل الإقناع الخالصة ، ، المستمدة من القرآن .

ويصف أو جين يونغ هذا المعنى حيث يقول :

« إن الإسلام يتحرك الآن ويتسع نطاقه بعد أن ظل مدة طويلة محصوراً فى دائرة محدودة . . . وكان ذلك نتيجة سياسة سلاطين

القسطنطينية ، ولكنه ما لبث أن نهض نهضته المعروفة ، وهو الآن يسير إلى التجدد باستناده إلى القرآن ، وهو كتاب نفيس وحيد فى بابه ، يستدرك الأمور ويساعد على التحول واقتباس محاسن الأشياء . .

وليس الإسلام متعصباً مهما أشاعوا عنه من الأخبار الملفقة ، فهو يفهم معنى الديانات الأخرى ، ويسلم بها . وليس أجمل من تكريمه لمريم العذراء . ومعلوم أن الاسلام اجتاز فى الماضى دوراً كانت الغاية منه الفتح ولكنه لم يكره الشعوب التى أخضعها على انتحال الدين الاسلامى » .

وإذا كان الإسلام ما زال يواصل الزحف دون أن تسنده قوة مادية ، وبالرغم من الإمدادات المادية الضخمة التي تعتمدها الحكومات الأوربية للبعثات المسيحية المنبثة فى أفريقيا وغيرها ... فإن هناك جندياً مجهولا هو الذى يقود هذه الانتصارات .. ذلك هو ما أطلق عليه توماس أرنولد « الشخصية الخرافية » ..

يقوم أرنولد « .. واليوم تمتد العقيدة الإسلامية من مراكش إلى زينجبار ، ومن سيراليون إلى سيبريا والصين ، ومن البوسنه إلى غانه الجديدة ، وكذلك نجد عدداً من الجميات الصغيرة التى تعتنق دين محمد فى بعض البلاد التى من بين سكانها عدد كبير من المسلمين كالصين وروسيا .

ويرجع انتشار الاسلام فى هذه الأماكن إلى مغامرات تلك الشخصية الخرافية ، شخصية الجندى المسلم ، يحمل فى إحدى يديه سيفاً ، وفى

الأخرى مصحفاً ... وتلك المجهودات الرزينة الخالية من كل طغيان ، التى نقل بها رجال الدين والتجار عقيدتهم إلى كل ربع من ربوع المعمورة » ويصور الدكتور هيكل هذا المعنى فى صورة أخرى حين يقول :

« على أن ما خسره الإسلام فى الأندلس فى غرب أوربا كان له عنه العوض ، حين فتح العثمانيون القسطنطينية . . ومكنوا لدين محمد فيها . هنالك امتدت كلمته إلى البلقان كلها ، وانبلج نوره فى فى روسيا وبولونيا وخفقت أعلامه على أضعاف ما كانت تخفق عليه من أرض أسبانيا ، ومن يوم انتشر الإسلام فى صولته الأولى إلى يومنا لم يتغلب عليه من الأديان متغلب ، وإن تغلب على أممه من شدائد الظلم وألوان التحكم ، مما جعلها أشد بالله إيماناً ولحكمه إسلاما » .

والمؤرخون الأربيون — على ما وصفوا به من التعصب ، يؤمنون بأن الاسلام لو امتد إلى أوروبا لأنقذها من براثن القرون الوسطى المظلمة التى تردت فيها . وفى هذا يقول « هنرى دى شاميون » .. « لولا انتصار جيش شارل مارتل على تقدم العرب فى فرنسا فى ظلمات القرون الوسطى ، ولما أصيبت بفظائعها ، ولما كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الدينى والمذهبى ... ولولا ذلك الانتصار البربرى على العرب لنجت أسبانيا من وصمة محاكم التفتيش ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون » .

ويمضى المؤرخ فى تصوير أثر الحضارة الاسلامية فى أوربا فيقول « نحن مدينون للشرق بكل محامد حضارتنا ، فى العلم والفن والصناعة . وحسبها

أنها كانت مثال الـكمال البشرى مدة ثمانيـــة قرون ، بينما كنا يومئذ مثال الهمجية » .

ويمكن القول بأن تراث الشرق فى حقيقته تراث إسلامى فقد تجمعت فيه خلاصات الثقافات والحضارات التى بزغت قبل الاسلام كلها وذابت فى بوتقته ، وتبلورت على صورته. وفى التراث الاسلامى زبدة ما فى الحضارات والثقافات القديمة الفرعونية ، والبابلية والأشورية والهندية والفارسية ومدارس الرها والإسكندرية الفلسفية .

وبينما انهارت الامبراطورية الرومانية المتيدة قبـل ألف سنة من تكوينها صمد الاسلام حضارة ومدنية وثقافة ، بعد أن تأثرت حياته السياسية بالاستعمار فى العصر الأخير . ومع مافعله الاستعمار فإنه ظل محتفظاً بقوته وكيانه ، ومضى يفتح عن طريق غير رسمى فتوحاته الروحية والاجتماعية . يقول ألفونس عوينى فى كتابه « الاسلام حيال الدول العظمى » :

« لم يجتذب الاسلام الوثنيين فحسب ، فقد اعتنقه كثير من النصارى والأحباش وبلغت نسبة معتنقيه رقماً كبيراً خلال الحرب العالمية الأولى ، وذلك لأن النجاشى « ياسو » إرتضى الاسلام ديناً » .

فى أفريقيا الغربية سجل الاسلام نجاحاً عظيما ، فقد بلغ عدد المسلمين فى إحصاء ١٩٤٠ سبعة ملايين ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى المبشرين الذين ينتمون إلى الجمعيات الدينية وإلى التتار المسلمين .

واستطاع الاسلام أن يوطد أقدامه فى المناطق الاستوائية وحمل تعاليم القرآن إلى أفريقيا الجنوبية مسلمون من الهند وماليزيا .

وقد رد معظم المحققين الأوربيين انتشار الاسلام فى القارة السودانية إلى كون دين التوحيد يقرر للزنجى المساواة والعدالة اللتين يتوق إليهما ويحرره نهائياً من سيطرة الكهان والسحرة .

ويجد الزنجى فى الاسلام قوة روحانية فائقة ، فيطرح عنه ثوب الخمول ويتحلى بصفات الرجولة الحقة .

ومهما يكن من الأمر ، فلا مندوحه من الاعتراف بأن نصف القارة الأفريقية اعتنق الاسلام وأن مقدرة النصف الآخر على الصمود فى وجه التيار من الأمور المشكوك فيها » .

ويصف المبشر «كانون سل» فى كتابه «الطرق الصوفية فى الإسلام» انتصار الدعاة المسلمين وهم لا يحملون من الوسائل أو المال ما يملك المبشرون يقول : « إن الإسلام أخذ ينتشر فى الحبشة ، وسيصبح شمال الحبشة عما قريب بلداً إسلامياً ، أما ممباسة وشرق أفريقيا ، فلا أثر فيهما للدراويش . وليس عظيما نجاح الإسلام فى شمال نيجريا حتى الأيام الأخيرة وذلك لما كان يلقاه هذا الدين من مقاومة القبائل الوثنية له » ...

وفى نيجيريا مسلمون تربوا تربية إسلامية، وهم على مذهب مالك بن أنس. وقد درسوا تفسير البيضاوى وصحيح البخارى وكتب الغزالى ، وقسم من هؤلاء ينتمى إلى الطريقة التيجانية منذ ٨٠ سنة .

والبلاد الممتدة من بحيرة نياسا حتى الشاطىء الأفريقى الشرقى لاتكاد تخلو من مسجد ورجل يدعو إلى الإسلام .

ويقول متيهف : « إن بين الأوربى والأفريقى هوة تفرق بينهما ، والمسلمون قد تمكنوا من إزالة الهاوية التى كانت بينهم وبين الزنوج بأن جعلوا لهم إلى هؤلاء سلماً » .

ويقول الدكتور حسين مؤنس فى كتابه «الشرق الإسلامى» : «وظلت بلاد الشرق طول العصر الوسيط ، تتسلل البدو والهمج من هضاب القزعير والتركستان فتنكسر شرتهم وتذيب همجيتهم ، وتصهرهم فى بوتقة الإسلام، وترفعهم إلى مستوى حضارته ، ومن ذلك المماليك والأتراك العثمانيون ، والسلاجقه ، تسلمهم الإسلام قبائل من الشرق وقدمهم من الغرب دولا ذوات حضارات » .

فاذا ذهبنا نستقصى رأى الغرب فى حضارة الإسلام لم نعدم منهم المنصفين الذين يعرفون أثر التراث الاسلامى وفضله على الحضارة الأوربية .

يقول جوستاف لوبون « الحق أن أتباع محمد ظلوا أشد ماعرفته أوربة من الأعداء إرهاباً عدة قرون . . وكانت أوروبا فضلا عن ارتعاد فرائصها فرقاً منهم تشعر بذلة الخضوع لأفضلية حضارتهم ونفوذهم الذى لم تتحرر منه إلا منذ زمن قريب ؛ وقد تراكمت أوهامنا الموروثه فى الاسلام والمسلمين بتعاقب القرون، فصارت جزءاً من مزاجنا وتشبه هذه الأوهام المتأصلة التى أصبحت طبيعة ثابتة فينا حقد اليهود الخفى العميق على النصارى . فإذا أضفنا إلى أوهامنا الفاسدة الموروثة فى المسلمين الزعم الباطل الآنى الذى زاد

مع القرون بفضل ثقافتنا المدرسية التقليدية البغيضة ، وهو أن اليونان واللاتينيين هم وحدهم منبع العلوم والآداب فى الزمن الماضى ؛ أدركنا السر فى جحودنا العام لفضل العرب فى تمدين أوربة » .

إن جوستاف لوبون غاية فى الانصاف . ولكن الواقع أن الكثير من الكتاب الغربيين هم أدوات الاستعمار . وبصف هذا المعنى مؤلف كتاب « معركة الاسلام » .

« إن الصليبيين يعرفون — ويقولون الصرحاء منهم — وقد سمعته فى أمريكا بأذنى ، إن الاسلام هو الدين الوحيد الخطير عليهم ، فهم لايخشون البوذية ولا الهندوكية ولا اليهودية إذ أنها جميعاً ديانات قومية لا يزيد امتدادها خارج أقوامها وأهلها .. وفى نفس الوقت أقل من المسيحية رقياً ..
فأما الاسلام فهو — كما يسمونه — دين متحرك زاحف ، وهو يمتد بنفسة وبلا أية قوة تساعده ، وهذا هو وجه الخطر فيه .

ونحن الغافلين فى الشرق لا ندرك ضخامة الجهود التبشيرية التى تبذلها أوربا وأمريكا لنشر المسيحية فى أرجاء العالم ، فى مجاهله ومعموره سواء ، لاندرك أن للكنيسة الكاثوليكية وحدها نحو ثمانية آلاف بعثة تبشيرية ، تنتشر فى أنحاء الأرض وتذهب إلى مجاهل الكنغو والتبت » .

ونريد أن نستخلص من هذه المجموعة من أقوال المؤرخين والكتاب من الغربيين ، وغيرهم أن الاسلام مازال يزحف فى قوة ، وأنه يكسب فى كل يوم مواقع جديدة . دون أن يتكلف لهذا النصر من الجهد أو المال ، مثل

ماينفقه الغربيون على التبشير المسيحى ، وأنه يصل إلى هذا بالرغم من أن سلطانه السياسى غير قائم على نحو من القوة .

ومرجع هذا إلى جوهر الاسلام ، وبساطته وسهولته هى التى مكنت الانسان البدائى الذى يعيش على الفطرة من أن يتقبله فى سماحة ، ويرضى به ويفضله على غيره من الأديان الأخرى التى تحمل إليه بطريقه أو بأخرى.

وقد استطاع خلال تاريخه الطويل الممتد أن ينتصر ، وأن يحمل الغالب الذى جاء طامعاً فى سحقه إلى اعتناقه .

كما كان طوال تاريخه لايعرف التعصب ولايدعو إليه ، وهو يجل جميع الأديان ويحترمها .

وقد حفظ تراث الحضارة بعدأن تلقاه من الرومان واليونان والهند والفرس، وأضاف إليه وتفاعل معه وزاده فيه حتى سلمه إلى أوربا الحديثة .

والسؤال الذى نريد أن نسأله اليوم : هل جاء دور الاسلام فى القيادة العالمية ؟ .

لقد دخلت الحضارة الغربية فى دور الانحلال بشهادة كبار رجالها الذين بدأوا يفتقدون العنصر الروحى الذى يرونه ضروريا لتدعيم الحضارة ، هذا العنصر الذى لن تستطيع الحضارة الغربية الحياة بدونه ، بعد أن فقد الناس الثقة فى مقوماتها وكيانها كله .

وهذا العنصر الروحى الذى تفتقر إليه الحضارة اليوم، موجود فى

فى وحده هو الذى يملك أن يمد الحضارة به ، فيحول بينها وبين الانهيار .

لقد أوغل الغرب فى المادية وأسرف فيها حتى حطم كل المقومات المعنوية والروحية . وأحس الناس أن هذه التجارب المادية المتوالية ، فى النظم السياسية والاجتماعية ونظم الحكم قد فشلت عاماً ، وأن نظاماً منها لم يحقق للناس ما يريدون وأن الانسانية مازالت تتردى فى حروب متوالية ، تهدد الحضارة والثقافة والأسرة والمجتمع جميعه بعوامل مختلفة بعيدة الأثر فى فقدان الثقة بالبشرية .

وقد كفر كبار المثقفين والمفكرين والفلاسفة بالمقومات العامة التى تقوم عليها الحضارة ، وبدأوا يراجعون هذه المقومات من جديد . وقد نادى الكثيرون منهم بضرورة العودة إلى الدين .

والشرق الذى يملك هذه الروحية ، كان قد جرى منذ وقت طويل فى الطريق المضاد ، وهو كافر بتراثه وحضارته ومقوماته . وجرى وراء هذه الحضارة ، بعد أن قذفه الغرب بألوانها البراقة . .

وفى الوقت الذى أخذ الغرب يعاود النظر فى حضارته بعين الشك ، كان الشرق يندفع مؤمناً بكليات هذه الحضارة دون وعى .

ويعود الغرب اليوم لالتماس الحقيقة فى الشرق ، فى تراثه وروحانيته ومثله العليا ، ويجد فيها الترياق الذى يمكن أن يمده بالحياة ، ويقدم له

العنصر الذى ينقصه ، فهل معنى هذا أن الشرق سيعود حثيثاً إلى مكانته الأولى ، وأن دوره فى الحضارة والنهضة قد جاء مرة أخرى ليكون سيد الموقف .

الحق ، أن الاسلام وهو دين الانسانية ، وهو على ما وصفه كتاب الغرب أنفسهم — جدير بأن يكون ذلك المنار الذى يهدى الانسانية بعد أن ضلت فى ظلمات المادية هذه الحقبة الطويلة .

انور الجندى

سجل الأحداث الكبرى فى تاريخ الاسلام

	سنة ميلادية
الهجرة وبدء التاريخ الاسلامى	٦٢٢
فتح مكة (٨ هـ)	٦٣٠
حجة الوداع ووفاة النبى	٦٣٢
الخلفاء الراشدون	٦٣٢ — ٦٦١
الدولة الأموية	٦٦١ — ٧٥٠
الخلافة العباسية	٧٥٠ — ١٢٥٨
مقتل الحسين فى كربلاء	٦٨٠
فتح الأندلس	٧١١
معركة تور (بواتية)	٧٣٢
نكبة البرامكة	٨٠٣
ثورة الزنج	٨٦٩
دولة السلاجقة	١١٠٧ — ١٣٠٠
الصليبيون فى بيت المقدس	١٠٩٩
نور الدين زنكى	١١٤٦ — ١١٧٣
صلاح الدين فى مصر	١١٧٤
وفاه جيكنزخان وتقسيم امبراطوريته	١٢٢٧

	سـنة ميلادية
بنو الأحمر فى غرناطه	١٢٣٢ — ١٤٩٢
لويس التاسع فى دمياط	١٢٤٨
المماليك فى مصر	١٢٥٤ — ١٥١٧
هولاكو يستولى على بغداد « نهاية الخلافة العباسية »	١٢٥٨
عين جالوت	١٢٦٠
الظاهر بيبرس	١٢٦٦ — ١٢٧٧
محمد الفاتح	١٤٥١ — ١٤٨١
فتح القسطنطينية	١٤٥٣
سقوط غرناطه ونهاية العرب فى الأندلس	١٤٩٢
العثمانيون فى مصر	١٥١٧

فهـــرس الموضوعات

ص